عزيز نيسين

حمدي الفيل

« قصص »

ترجمة: عبد الوهاب مدني

الوطنية الجديدة

حمدي الفيل

* حمدي الفيل «قصص»
* تأليف: عزيز نيسين
* **ترجمة: عبد الوهاب مدني**
* الطبعة الأولى ٢٠٠٦
* جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
الناشر:
الدار الوطنية الجديدة للنشر
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٥٩٥٣
تلفاكس: ٢٢٤٨٥٦٠ ـ هاتف: ٤٤١٨٢٠٢

* العمليات الفنية: **مؤسسة سندباد**
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٩٢٢٣ ـ بريد الكتروني: sindbad@scs-net.org

عزيز نيسين

حمـــدي الفيـــل

« قصص »

ترجمة: عبد الوهاب مدني

الوطنية الجديدة

عنوان الكتاب بالتركية

AZIZ NESIN

FIL HAMDI

١ ـ كيف تم القبض على حمدي الفيل

قامت مديرية أمن استانبول بتعميم البرقية التالية على جميع مديريات الأمن خارج مدينة استانبول.

في الخامسة والثلاثين من العمر. طويل القامة، وزنه حوالي مائتي كيلو غرام، حنطي اللون، ثلاثة من أسنانه غير موجودة. ضرس في فكه العلوي فيه (حشوة)، أما في فكه السفلي فهناك ضرس مُطعّم بالذهب، يرتدي ثياباً بنية اللون مقلّمة، شعره قليل، وجهه عريض، عيناه بلون بني، لقبه محمد الفيل، محتال ومن أصحاب السوابق المتوحشين، هرب من قبضة إثنان من الشرطة كانا يقومان بحراسته ليلاً نهاراً طيلة ثلاثة أيام دون أن يغمض لهما جفن، استغل لحظة غفلة عيونهم، وهرب من بين أيديهم، وقد تبين بصورة قطعية لاتدع مجالاً للشك بعد أن قمنا بجميع أنواع التحقيق والتعقيب والتدقيق أن حمدي الفيل قد هرب.

لذا يرجى التعميم على جميع المخافر من أجل الانتباه واخذ الحيطة والحذر عندما يسأل أحدهم عن عنوان أو طريق. ونرجو في حالة العثور عليه في محافظتكم وتوابعها من القرى والأقضية، إرساله إلى مديرية أمن استانبول بالسرعة والوقت الذي ترونه مناسباً. علماً بأننا ننتظره بفارغ الصبر. ونرجو أن لا تتركونا بالانتظار لفترة أطول. ربطاً صورة لصاحب السوابق المتوحش حمدي الفيل.

* * *

في إحدى المحافظات النائية وقف اثنان من رجال الشرطة يتحادثان

ـ انظر يا صديقي رمضان أنا متأكد أن هذا الشخص الذي يشرب الشاي هو حمدي الفيل.

ـ لعله يشبهه.. أعطني الصورة لكي نتأكد.

ـ هذه ليست صورته يا رمضان، إنها صورتك.

ـ نعم إنها صورتي لقد تصورتها في العيد.

ـ حسناً ولكن يا ليتك ضحكت.. هيا أخرج صورة حمدي الفيل.. أخرج رمضان من جيبه مجموعة من الصور وبدأ بالبحث.

ـ هذه صورة ابني.. ذكرى خدمته في الجيش.. وهذا محمود..

ـ هل تسأل عن هذه الصورة؟.. هذه صورة علي مهرِّب الهيروين.

ـ وهذا صبحي (فأر الأوتيل).. لقد اختلطت الصور ببعضها. هيا أخرج لنا هذا الفيل يا رمضان.

بدأ محمود ورمضان يبحثان بين الصور لعلهما يجدان صورة حمدي الفيل.

ـ أسرع يا محمود لقد انتهى الرجل من شرب الشاي وسوف يهرب الآن.

ـ انظر كيف يتلفت يميناً وشمالاً.

ـ لقد وجدتها هذه هي الصورة. بالضبط.. إنه هو.

تقدما نحو الرجل المشتبه به وقالا له:

ـ قف هكذا أيها المواطن.

ـ وبدأوا بالنظر مرة إلى الصورة ومرة أخرى إلى وجه الرجل.

ـ قف جانباً لكي نرى.

ـ إنه لا يشبهه يا رمضان.

ـ لنأخذه إلى رئيس المخفر لعله يتعرف عليه، ربما استطاع تمييز الشبه.

ـ هيا بنا أيها المواطن سوف تذهب معنا إلى المخفر.

* * *

وفي محافظة نائية أخرى كان هناك موظفان أمنيان يقفان في السوق وهما يتحادثان.

ـ قال أحدهما من المعيب علينا يا أخي شكري، فنحن نبحث منذ الصباح وحتى المساء دون أن نتمكن من القبض على حمدي الفيل.

ـ انظر لعله ذلك الرجل؟

ـ ربما.. دعنا نسأله.

ذهبا إلى الرجل وسألاه:

ـ ما اسمك أيها السيد؟

ـ مصطفى.

تكلّما مع بعضهما همساً.

ـ يقول أن اسمه مصطفى.

ـ يجب أن يقول حمدي!.. ربما يخفي علينا اسمه..!

ـ وهل يظن أنه يستطيع خداعنا.

ـ هل يمكن أن تأتي معنا؟

* * *

وفي محافظة بعيدة أخرى كان هناك موظفان أمنيان جالسان في المقهى وهما يتحادثان.

ـ لقد قبضت البارحة على ثلاثة أشخاص مثل حمدي الفيل وسقتهم إلى المخفر ولكن رئيس المخفر لم يعجبه أي واحد منهم.

ـ يا أخي إن رئيس مخفرنا يحب المشاكل.

ـ اسكت.. تكلم بصوت منخفض لكي لا يسمعنا أحد. انظر إلى ذلك الرجل الذي يشرب الشاي.. انظر إليه بطرف عينيك.

ـ إنه هو.. نفسه.

ـ ولكن المكتوب في الأوراق أن حمدي الفيل بدين وهذا الرجل ضعيف البنية وكأنه هيكل عظمي.

ـ حتماً سيصبح ضعيف البنية فهو يتجول هارباً وهذا ليس بالأمر السهل.

ـ معك حق.. ولكن هذا الرجل أسمر اللون بينما حمدي الفيل حنطي اللون.

ـ لقد أصبح لونه داكناً من كثرة تجواله في البوادي والجبال..

ـ صحيح.. لكن هذا الرجل شعره أسود وكثيف بينما كتب في الأوراق أن شعر حمدي الفيل قليل وقد تساقط معظمه.

ـ هذا ممكن، وقد يكون الرجل بقصد التنكر قد وضع على رأسه شعراً مستعاراً.

ـ ماذا ننتظر إذن. دعنا نقبض عليه.

اقترب الاثنان من الرجل وسألاه.

ـ ما اسمك أفندم؟

ـ حمدي.

ـ نظرا إلى بعضهما وهما يضحكان ضحكة ذات مغزى.

ـ هيا بنا إلى المخفر.

ـ ما الأمر.. ماذا جرى.

ـ لا تسأل كثيراً.. سوف تفهم في المخفر كل شيء.

* * *

وفي محافظة نائية أخرى كانت الأمور تجري كغيرها في باقي المحافظات، استوقف إثنان من الشرطة شخصاً سائراً على الطريق العام.

ـ افتح فمك..

ـ لا يوجد شيء في فمي.

ـ افتحه مادام لاشيء فيه.

فتح الرجل فمه وحدق الشرطيان ملياً داخل فمه وخاصة أسنانه، قال شرطي لزميله:

ـ دقق الأوراق التي معك كم ينقصه من الأسنان.

ـ قرأ الثاني في الأوراق. ثلاثة أسنان ناقصة.. ضرس في الفك الأعلى فيه حشوة طبية.. وفي فكه السفلي هناك ضرس مُطعّم بالذهب.

وبدأ الشرطي في إحصاء أسنان الرجل.

ـ واحد، اثنان، ثلاثة. أربعة، لا تمزح لقد أخطأت في التعداد، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة.. أربعة وعشرون...لديه أربع وعشرون سناً.

ـ هل قلت أربع وعشرون، كم واحد ناقص؟.. أنت كم ينقصك من الأسنان هل تعلم.

ـ ثمانية...

ـ لقد خلع أسنانه، لكي يخفي الأدلّة.

ـ الأسنان التي في فمي هي (طقم أسنان) وأنا ليس لدي سن اصلي، حتى أن أربعة منهم كسروا عندما كنت أمضغ الذرة المشوية.

ـ هل ذُكر في الوراق أن أسنانه تركيب؟..

ـ لم يُذكر ولعلّهم نسوا أن يكتبوا أن أسنانه تركيب. إنه هو يا عزيزي.. هو بعينه.. انظر إلى الضرس المُطعّم بالذهب.. تعال معنا يا سيد.

ـ إلى أين؟

ـ إلى المخفر.

* * *

كان يصل إلى مديرية أمن استانبول من المحافظات الأخرى مئات البرقيات يومياً وجميعها ذات مضمون واحد تقريباً.

«جواباً على برقيتكم رقم... وتاريخ... نفيدكم بأننا قبضنا ضمن حدود محافظتنا على أربعة عشر شخصاً يرتدون ألبسة بنية مقلّمة

منهم ثمانية أشخاص لهم ضرس في الفك السفلي مُطعم بالذهب. يعني أننا قبضنا على أربعة عشر شخصاً حمدي الفيل، يرجى إعلامنا فيما إذا كان هذا العدد كاف أم لا. وهل تريدون أن الاستمرار في البحث أم لا. يرجى التفضل بما ترونه من الأوامر ودمتم».

عممت مديرية أمن استانبول إلى المحافظات البرقية التالية:

«لقد امتلأت جميع الأماكن في الوقت الحاضر، ونرى أن عدد الأشخاص الذين ألقي القبض عليهم باسم حمدي الفيل كاف، نرجو كف البحث من أجل القبض على حمدي الفيل، لغاية صدور أوامر أخرى».

ملاحظة: لقد تم القبض على الفار حمدي الفيل.

○ ○ ○

٢ ـ الشركة التركية المساهمة لقطع التبديل

أمضيت وقتاً طويلاً وأنا بدون عمل، وفي أحد الأيام وفيما كنت أمشي فوق الجسر راودتني فكرة الانتحار. بدأت أناقش هذه الفكرة وبصوت مسموع، وأسأل نفسي هل الانتحار عمل شجاع، أم عمل جبان، وإذا بأحد الأشخاص يمسكني من ذراعي ويقول لي:

ـ هل جننت يا نوري!

كان صديقي منذ أيام الدراسة وقد نسيت اسمه تماماً.

ـ لا ادري إن كنت قد جننت أم لا.

مشينا سوية فسألني:

ـ ماذا تعمل؟.. أجبته..

ـ منذ سنتين وأنا أخرج من البيت لأبحث عن عمل من الساعة الثامنة صباحاً ولا أعود إليه قبل التاسعة مساءً.

ـ إنه عمل صعب.

ـ صعب كان أم سهل. فأنا أحتاج للعمل، وقد تركت اسمي وعنواني لدى جميع الدوائر الحكومية والخاصة في استانبول، لأنك عندما تطلب عملاً من أي جهة كانت يقولون لك: اترك لنا اسمك وعنوانك ونحن سوف نخبرك برسالة.

ـ هل يكفيك ثلاثماية ليرة شهرياً؟

- أرجوك، لاتسخر مني.

- هيا بنا، تعال معي.

- ركبنا التاكسي ووقفنا أمام محل كبير، كتب على زجاج واجهته كلمة (قطع تبديل). دخلنا إلى المكتب الفخم في الطابق (العلوي) فقال لي صديقي:

- إن وضعك يدعو للحيرة والاستغراب، فقد كنت أكسل طالب في المدرسة، علاوة على أنك كنت مهملاً في كل شيء، وأنهيت الثانوية بصعوبة فائقة، ولم تتابع دراستك الجامعية، بالإضافة إلى أنك كنت غبياً بما فيه الكفاية، وبالرغم من كل هذه الصفات كيف لم تستطع أن تصبح صاحب عمل، فأجبته:

- لعل هناك نقص في تكويني.

- هذا المحل لقطع التبديل هو ملكي!..

- ما معنى كلمة (قطع تبديل)؟..

- هي اختصار لشركة تركية مساهمة.

- هل لديك شركاء آخرين؟

- كلا ليس لدي شركاء ولكن لكي تصبح شركة، أضفت اسم زوجتي وأختها كشركاء. لأن ثقة الزبون تكون أكبر إذا كان يتعامل مع شركة، وبالتالي فأنت يمكنك أن تعامل الزبون كما تريد، وحتى بالنسبة لموضوع الضرائب فهناك سهولة، ومهما يكن ستتعرف على كل هذه التفاصيل فيما بعد. سألته.

- ماذا تبيعون هنا؟..

- لاشيء!..

- كيف؟..

من الواضح أنني لا أبيع شيئاً انظر إلى هذا المحل الكبير هل ترى شيئاً؟

- الحقيقة كانت جميع الرفوف فارغة ولا يوجد في هذا المحل الضخم سوى بعض أحواض الزهور الكبيرة والمزروعة بنباتات الزينة، ذات الأوراق العريضة.

- شركتي هذه لها خمسة فروع في كل من أضنة، وقونيا، وملاطيا، وأزمير، وأنقرة.. وإذا كنت مستعداً فأنا أستطيع أن أعلّمك لكي تصبح مديراً لأحد الفروع الجديدة التي سأفتتحها، وسوف تتقاضى مبدئياً ثلاثماية ليرة أجراً شهرياً ثم يتزايد ليصبح ألف ليرة عندما تصبح جاهزاً للعمل.

- وما هو العمل الذي سأقوم به؟؟

أَخرَجَ من خزانة الملفات، دفتراً كبيراً وسميكاً.

- سوف تجد هنا أسماء وأسعار جميع قطع التبديل.

نظرت إلى الصفحة الأولى من الدفتر كان مكتوباً فيها ما يلي:

«المولد، الميل الرئيسي، المحور، قميص الاسطوانة، المخروط الصغير».

- تستطيع أن تباشر العمل فوراً.

نزلنا إلى الأسفل. كان يقف أمام الطاولة الأنيقة والطويلة المصنوعة من خشب الجوز شخص فقال له:

- يا صائم.. هذا نوري بك.. وبعد أن تعارفنا قال له:

ـ إن نوري بك سوف يتدرّب عندكم.

فتحت عيوني جيداً لكي أتعلم المهنة، قدم لي صائم بك سيجارة وقبل الانتهاء من التدخين دخل اثنان من القرويين.

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام، أيها الآغوات، تفضلوا، استريحوا.

ـ شكراً إننا مشغولين جداً.

ـ أعتقد أن التراكتور هو السبب.

ـ نعم

ـ لقد انكسر عمود المأخذ، وتعطلت أعمالنا، هل لديكم طلبنا؟

ـ واه.. واه.. واه.. مع الأسف لقد كان لدينا ولكننا بعناه قبل قليل. لو كنتم دخلتم قبل خمس دقائق!.. لوجدتم طلبكم.

رد أحد القرويين قائلاً:

ـ يا لسوء الحظ وضرب يده على ركبته.

ـ أظن أنه يوجد لدى أحدهم، سوف أسأل إن لم يكن قد باعه.

ـ نرجوك ياسيدي أن تسأل لنا عنه.

ـ اتركوا ثمنه وعودوا إلينا بعد يومين لكي تأخذوه.

وفقك الله.. كم تريد؟

ـ والله كما قلت لكم، لقد بعناه قبل خمس دقائق بخمسة وعشرين ليرة ولو كان لدينا فالأمر سهل.

ـ مهما كان يا أخي، نحن لانريد أن تتعطل أعمالنا.

ـ إن الرجل الذي لديه طلبكم قليل الوجدان ولا ادري إذا كان سيبيعه بمائتين وخمسين ليرة.

تهامس القرويان ثم قاما بدفع مبلغ مائتين وخمسين ليرة، وخرجا.

ـ مع السلامة.

ولم يمض خمس دقائق حتى دخل قروي آخر.

ـ هل لديكم مسنن سحب؟

ـ لدينا مسنن مرآة. ليس لدينا مسنن سحب.

ـ ما يلزمني هو مسنن السحب.

ـ لا يوجد لدينا في الوقت الحاضر، ولكنه موجود لدى أحد الباعة وهو قليل الوجدان ويطلب ثمناً غالياً بقدر مهر أمه.

ـ ليطلب ما يريد. فالجرار يقبع في الحقل منذ أسبوع كالجثة الهامدة.

ـ أترك لنا مبلغ ثلاثماية ليرة، لعلنا نتمكن من إقناعه بهذا السعر، وإذا لم يقتنع فسندفع باقي المبلغ من قبلنا ونسترده منك فيما بعد.

عدَّ الرجل مبلغ ثلاثماية ليرة.

ـ عد إلينا غداً لتأخذه.

خرج ذلك الرجل ودخل رجل آخر وطلب مسنن مرآه، فقال له:

ـ عندنا مسنن سحب، لقد بعنا مسنن المرآة قبل قليل. كان كل من طلب قطعة يقول له ليس لدينا ويقول عن نقيضها أنها موجودة.

ـ هل لديكم ذراع اسطوانة؟.

ـ لدينا أسطوانة وليس لدينا ذراع لقد بعناه قبل قليل ولكن هناك بائع قليل الوجدان يمكن أن يوجد لديه، إذا لم يكن قد باعه.

يخرج ذلك الرجل ويدخل آخر، ويسأل.

ـ هل لديكم مُسنن حركة خلفية؟.

ـ لقد بعناه قبل قليل.

ـ هل لديكم مدحرجات كروية؟..

ـ لدينا مدحرجات أسطوانية.. ولكنكم إذا كنتم ترغبون فإننا نستطيع تأمينها لكم فهي موجودة عند بائع قليل الوجدان هو يبيع بأسعار السوق السوداء.

كان كل من دخل المحل يدفع مبلغاً يتراوح بين الثلاثمائة والخمسمائة ليرة.

دخل أحد القرويين وسأل:

ـ هل وصل عمود السحب الذي طلبته؟ لقد دفعت لكم أول البارحة مبلغ مائتين وخمسون ليرة.

أجابه صائم بك.

ـ لقد وجدناه ولكن الرجل قليل الوجدان طلب مائة ليرة زيادة، دفع الرجل المائة ليرة فصاح صائم بك في العامل الموجود في المحل.

هيا أسرع وأحضر العمود من عند (أبو ستول).

كان صائم بك بمجرد عودة أحد الزبائن الذين دفعوا له مقدماً يتخذ من (أبو ستول) وسيلة ويرسل العامل فيجلب القطعة المطلوبة.

في المساء جاء صديقي صاحب شركة (قطع التبديل) وسألني.

ـ كيف وجدت العمل؟

ـ جيد جداً.

كما رأيت يا صديقي ليس لدينا أي شيء ولانبيع أي شيء هنا، ومع ذلك يجب أن يدخل إلى صندوقنا كل يوم وقبل أن نغلق أبواب المحل مالايقل عن ثلاثة أو خمسة آلاف ليرة كأرباح. مع أن قيودنا في غاية الدقة والنظام أليس كذلك يا صائم بك.

ـ نعم ياسيدي.

ـ نحن لا نسجل في دفاترنا سوى الأسعار الرسمية المدونة على الفواتير النظامية، كيف رأيت عملنا يا سيد نوري هل يمكن القيام بهذا العمل.

ـ طبعاً لقد فهمت طريقة العمل ويمكنني أن ابدأ بالعمل فوراً.

في هذه الأثناء دخل اثنان من القرويين فقال لي صاحب الشركة:

ـ هيا لنرى كيف ستتصرف.

تكلمت مع القرويين فوراً وقلت لهم.

ـ تفضلوا أيها الآغوات.

ـ هل لديكم (قشاط مروحة)؟

بدأت بالحديث معهم تماماً كما تعلمت من صائم بك.

آه. كان لدينا قشاط مروحة ولكننا بعناه قبل قليل. لدينا (قشاط بنطلون) إذا كنتم ترغبون، لكن انتظروا لكي أتأكد. نعم يوجد لدينا قشاط مروحة واحد.

ـ كم سعره؟

ـ لا تسألوا عن الأسعار، فأنا أخجل من الكلام. قوّاد قليل الوجدان والضمير يطلب سعراً يساوي مهر أمه. إنه لا يبيعه بأقل من مائة ليرة.. إنه حقير قليل الشرف أحد تجار السوق السوداء، يشلح الناس كالبصل، فلينتقم الله منه.

ورغم أن القرويين قد دفعوا المائة ليرة إلا أنني استمريت في الشتم.

ـ قليل الدين... قشاط مروحة بمائة ليرة؟ ولكن ما العمل لقد وقعنا بيد شخص قليل الأصل حليبه عاطل. كلب ابن كلب، لادين ولا إيمان عنده.

ايدني القرويان في كل ما قلته وقالوا:

ـ صحيح.. صحيح.. معك حق، ثم انصرفوا، وبينما كنت أجهز نفسي للخروج من المحل خلفهم لأنني كنت على يقين بأنني سأطرد من العمل قال لي صديقي:

ـ حلال عليك، كم أنت إنسان موهوب، ماشاء الله، لقد تعلمت المصلحة في يوم واحد، وأنا سأدفع لك منذ الآن خمسمائة ليرة شهرياً.

عملت في شركة (قطع التبديل) لمدة ستة أشهر وارتفع راتبي حتى وصل إلى الآلف ليرة شهرياً. ولكي أربح هذه الألف شهرياً كنت أداوم يومياً من الصباح الباكر حتى المساء وأنا لا أتوقف عن شتم أم وامرأة المعلم وكان كلما سمعني يقول لي وهو يربت على كتفي:

ـ عفارم.. حقا أنت الرجل الذي كنت أبحث عنه.

○ ○ ○

٣ ـ مصنع الطناجر ذات الصافرة

تشجيع الصناعة الوطنية هو واجب على الجميع.

فرحت عندما علمت بأن مصنع الطناجر ذات الصافرة قد وجه نداءً إلى وسائل الإعلام للإطلاع على صناعة الطناجر الصافرة فذهبت أنا ومجموعة كبيرة من الصحفيين، كان المدير ذو الوجه البشوش يستقبل ضيوفه فور وصولهم عتبة باب إدارة المصنع. المدير ينهض من مكانه ويقف عند باب الصالون لاستقبال ضيوفه وكان يصافح الصحفي القادم ويتأبط ذراعه ويجلسه في مكان مريح.

كنت سعيداً جداً لأن الصناعة الوطنية قد تطورت في بلادنا لدرجة أنها تمكنت من صناعة طنجرة ذات صافرة، وبعد أن قدموا السكاكر لكل الحضور، ضغط المدير على أحد الأزرار فدخل رجل مهندم مؤدياً التحية بكل تواضع. ثم التفت إلينا قائلاً :

ـ لدينا شراب الفريز النفيس وهو في غاية الجمال والروعة والطعم اللذيذ.

كنا حوالي ثلاثين صحفياً، قدَّموا الشاي والقهوة، وشرب البعض عصير الفريز. تكلمنا بادئ الأمر عن أحوال الطقس، ثم عن الأفلام السينمائية المحلية. وبحثنا في الوسائل اللازمة لتطوير صناعة السمك، وتخلل الحديث بعض النكات المستهجنة التي ضحك لها الجميع، وكان بين الحاضرين كثير ممن يحبون الفكاهة وخفة الدم، لذلك فقد

تحول الصالون إلى مسرح كوميدي ارتجالي. بعد قليل اشتكى أحد الصحفيين من آلام (البواسير) فنصحه مهندس الشركة بالعلاج اللازم، بعد ذلك نهض المدير بمنتهى اللطف والذوق داعياً الجميع إلى تناول طعام الغذاء.

كانت طاولة الطعام ضخمة وعليها جميع ما يخطر على البال من مأكولات، من بيض الغنم، إلى بيض السمك، ومن حليب العصفور إلى حليب الجمل، ومن لحم الصيد، إلى لحم الجمل.

تناولنا الطعام في جو مفعم بالضحك والمزاح لدرجة أن أحد الأصدقاء كاد يختنق من الضحك وهو يلتهم فخذة دجاجة.

ثم قدمت لنا القهوة والسكاير، بعدها غادر معظم الصحفيين الذين يكتبون في الصفحة الاقتصادية لأن لديهم أعمالاً أخرى، بعد أن اعتذروا من المدير قائلين:

ـ تعرفون مهنة الصحافة.. ثم ودعوه وانصرفوا.

وبما أننا جميعاً على اطلاع واسع بكل الأمور، فلم نترك شيئاً إلا وتحدثنا عنه بالتفصيل ابتداء من الموسيقى وصولاً إلى القنبلة الذرية، ومن المسرح حتى الطائرة النفاثة، حتى قاربت الساعة السابعة عشرة فقال لنا المدير:

ـ تفضلوا إلى طاولة الحلويات.

كانت الطاولة وماعليها عامرة بجميع أنواع الفواكه والمشروبات. ومن أجل أن تفتح شهيتنا على الطعام التفتنا إلى الفودكا مع المازوات الباردة، والنبيذ مع الفواكه الطازجة، والسكاكر مع العنبرية والعرق مع الفواكه المجففة، والبيرة مع أنواع الجبن، والويسكي بدون مازة، حتى

أننا شربنا بعض المشروبات الأجنبية كمشروب (الجن) مثلاً.

بعد ذلك ذهب قسم آخر من الأصدقاء، أما أنا فبقيت لأنني كنت أعطي اهتماماً كبيراً للصناعة الوطنية، وكنت أنتظر بفارغ الصبر المعلومات التي سيدلون بها عن صناعة الطنجرة ذات الصافرة.

قاربت الساعة الثامنة ولم يبق سوى ثلاثة أشخاص. كان أحدنا كاتباً في الصفحة الرياضية، والثاني كاتباً في صفحة التسلية ومختص بتنظيم الكلمات المتقاطعة، والثالث أنا الكاتب الساخر.

نظر المدير إلى وجوهنا ولسان حاله يقول «ماذا ينتظر هؤلاء البلهاء بعد أن أكلوا وشربوا وشبعوا»، التفتُّ إلى زميلي الكاتب في الصفحة الرياضية وسألته.

ـ وماذا بعد؟

ـ أنا أنتظر المدير لأنه سيأخذني معه بسيارته.

واتضح لي أن الشخص الآخر هو صديق قديم للمدير، سألت المدير بخجل بعد أن نفذ كل مالدي من الكلام.

ـ هل أستطيع أن آخذ فكرة عن مصنعكم؟.. دهش المدير لهذا السؤال وأجابني وهو يقضم قلم الرصاص بأسنانه.

ـ هه.. هل سألت عن المصنع؟.. تعلمون أن هذا المصنع.. صفارة.. يعني.. مصنع الطناجر ذات الصافرة، نحن نصنع يومياً سبعة وعشرون طنجرة ولكنني عندما استلمت إدارة المصنع زاد مردودنا الإنتاجي خمسة طناجر يومياً، وآمل أن يصل إنتاجنا في المستقبل القريب إلى أربعين طنجرة يومياً، ولعلكم تعلمون بأن الحكومة قد أخذت على عاتقها تامين مسكن ملائم لكل مواطن، كما وضعت البرامج اللازمة

لكي يتمكن المواطن أيضاً من تأمين جميع التجهيزات اللازمة لهذا المسكن.

ويجب علينا مضاعفة مردود مصنعنا عدة مرات لكي نواكب توجهات الحكومة. ولكننا مع الأسف نعاني بعض الصعوبات التي أرجو أن لا تأتوا على ذكرها في صحفكم. وأنا سأحدثكم عنها بشكل خاص، هناك بعض المواد الأولية التي يحتاج إليها مصنع الطناجر.. مثل غطاء الطنجرة، البراغي، الصفارة، والقطع الأخرى وجميعها تأتي من أميركا. ونحن نقوم بتجميعها هنا ونصنع طنجرة ذات صافرة، يعني أننا نصنع الطنجرة بجهد وعرق العامل التركي. وبعد ذلك نضع فوقها لاصق معدني مكتوب عليه (صناعة وطنية)، وهذا اللاصق يأتينا من أميركا أيضاً. لقد أنشأنا المصنع برأسمال أميركي تركي مشترك. دفع التمويل من قبلنا، والعقل والتفكير من قبلهم.

لكننا في الآونة الأخيرة بدأنا نعاني صعوبات في إنتاج الطناجر لأن القطع اللازمة لم تصلنا، والطناجر التي نصنعها هي أفضل وأكمل من الطناجر ذات الصافرة الأوروبية والأمريكية، يكفي أن صوت صفير طنجرتنا حلو للغاية، فمثلاً عندما تطبخ فيها فاصوليا بمجرد أن ينضج الطعام تقوم الصافرة بإصدار صوت جميل وتصدح بمهارة، وتحسب انك تستمع إلى فرقة موسيقية، أما الطنجرة الأمريكية والأوروبية فلا تسمع منها سوت (تش) وينتهي الأمر، وأكثر النساء تخاف من هذا الصوت وكم من امرأة أجهضت بسببه، ثم إن طناجرنا يصدح صوتها لفترة أطول.. يعني أنها تفوق البضاعة الأجنبية من جميع الوجوه،

وكما قلت لكم نحن لانجد المواد الأولية. ولكن والحمد لله في بلادنا صافرات كثيرة ولكن دون طناجر. ولمواجهة هذه المشكلة فكرنا بطريقة مفيدة: وهي أن نقوم بإنتاج الصافرات. ليشتريها كل من يرغب ويركبها على طنجرته العادية، ويطبخ طعامه، ويراقب نضوج الطعام بين الحين والآخر وعندما ينضج الطعام يشغل صفارته، وبهذا الشكل تكون الصافرة أنذرت بنضج الأكل ويكون الجميع قد أصبحوا من أصحاب الطناجر ذات الصافرة.

كما أن هناك فوائد أخرى لمن يريد: يمكن الاستعاضة عن الصافرة بالناي أو الكمان أو الطبل وعندها تصبح طنجرة بكمان أو طبل نكون نحن الوحيدين أصحاب هذا الاختراع، وعندما يكون هناك طنجرة بطبل، سوف لن يبقى أحد في الحي إلا ويفهم أن الأكل قد نضج.

شكرت المدير على هذه المعلومات التي أعطاني إياها وغادرت المصنع وفي اليوم التالي كتب الصحفيون الذين حضروا للشركة في صحفهم ما يلي..

«صناعتنا الناهضة»

«إن صناعتنا المحلية من الطناجر ذات الصافرة، تفوق بجودتها الصناعة الأوروبية من جميع الوجوه»

«نحن نصنع سنوياً خمسة وعشرون مليون طنجرة ذات صافرة»..

○ ○ ○

KMH

٤ ـ المرايا المعجزة

السيد داود تاجر كبير محتكر لقطع التبديل. أقام وليمة ضخمة في منزله حضرها كبار المدعويين أمثال مدير بنك (لاباد) وزوجته اللعوب وأختها الكبرى.. والسيد حمزة وهو من كبار رجال السياسة وزوجته العاقر، و(مدني بك) من كبار أصحاب الأملاك والعقارات، وسكرتيرته السيدة (إيبك) ذات العيون اللوزية، بالإضافة إلى الحاج عثمان باير من كبار تجار (أضنة). وصديقته.

كان المذيع يقول:

ـ مستمعينا الأكارم، إلى هنا وتنتهي سهرتنا مع الموسيقى التركية الكلاسيكية لهذا المساء. والآن سوف نبدأ بتقديم برنامج «ساعة مع الاختراعات الجديدة» يقدمها المهندس الحائز على شهادة عليا في الميكانيك إنه المهندس (مكي).

وفور سماع زوجة مدير البنك اللعوب هذا الخبر قالت:

ـ أمان أنا لا أطيق سماع صوت هذا الشخص.

تدخل الحاج عثمان باير قائلاً:

ـ أرجوكِ اسمحي لنا لكي نستمع إليه، فقد تحدث في الأسبوع الماضي حول موضوع هام جداً وهو «كيف نصنع القطن من الورق»

بدأ المهندس مكي بالكلام فقال:

ـ مستمعينا الأكارم! في الساعة المخصصة من البرنامج لهذا

الأسبوع (الاختراعات الجديدة). وفي الوقت الذي كنت سأبدأ فيه الحديث عن تطبيقات استعمال الذرة لخدمة الإنسان. بدأ العمل اليوم بتشغيل إحدى المحطات الذرية الضخمة في الولايات المتحدة الأمريكية وفي مدينة (أتوم - يورك). إن هذا الاختراع الذري يعتبر معجزة بحق، لقد حيّر عقول الناس كافة. سنطبق أشعة هذه الذرة لتنعكس على جميع المرايا الموجودة في جميع أنحاء العالم، وستظهر على سطوح هذه المرايا جميع الصور التي انعكست عليها منذ تاريخ صنعها وحتى اللحظة التي أنتم فيها، وعلى سبيل المثال. لنفترض أن في منازلكم مرآة تستعمل منذ عشرين عاماً، سترون جميع الصور التي مرت على هذه المرآة بمجرد انعكاس الشعاع الذري عليها، وسوف ترون هذه الصور وكأنكم تشاهدون عرضاً سينمائياً، لأن جميع التجارب التي جرت حتى الآن تكللت جميعها بالنجاح. وبموجب هذا الاختراع الرائع، سوف تتمكنون من مشاهدة أنفسكم وأنتم في سن الشباب والطفولة وتشاهدون لحظات الحب والذكريات الجميلة.

كونوا صباح الغد بعد التاسعة صباحاً أمام مراياكم.

قالت زوجة مدير البنك:

- امان كم هو رائع.. رائع حقاً.. وضربت كفيها ببعضهما، وقالت لدي مرآة استعملها منذ طفولتي والآن سأستعيد من خلالها كل حياتي.

نهض الجميع من على مائدة الطعام، ووقفوا في الصالون الكبير وقد تجمعوا في حلقات وبدأوا بالحديث عن هذه المرايا الذرية الجديدة المعجزة.

همس السيد حمزة وهو من كبار ساسة البلد في أذن السيد موني من كبار تجار العقارات أيضاً وقال له:

ـ إن هذا الاختراع، شيء خارق يا عزيزي، وسيكون السبب في كشف كثير من الحقائق! ففي أحد الأيام وفي مديرية الأمن، عذبوني كثيراً واعذرني إذا قلت لك انهم غسلوني ببول الحمير. وبعد أن خرجت، ذهبت إلى الطب الشرعي. وأخذت تقريراً يفيد بأنني تعرضت للضرب طيلة خمسة وعشرون يوماً. وشكوت أمري إلى المحكمة ولكنني لم أستطع أن أثبت الجهة التي ضربوني عليها. لذا قالوا لي في المحكمة: أنت الذي ضربت نفسك.

فقال له السيد مدني:

ـ حسنا ولكن ما علاقة المرآة بهذا الموضوع يا سيد حمزة؟

ـ ماذا تقول!.. طبعاً هناك علاقة. فقد رأيت مرآة معلقة على الحائط عندما كانوا يضربونني، وبفضل هذه المرآة سيظهر كل شيء.

وأردف السيد مدني قائلاً:

ـ معك حق. ولكن هل تعلم أنني سوف أكسب ما لايقل عن أربعين إلى خمسين ألف ليرة بواسطة هذه المرايا السحرية.

ـ كيف سيتم ذلك؟

ـ إنه شيء بسيط للغاية، بفضل المرآة الكريستال الموجودة فوق (البوفيه). وأنت تعلم أنني كنت على علاقة حب من ابنة (الكلاوي).

ـ نعم لم يبق أحد لا يعرف هذا الموضوع.

ـ في ذلك الحين لم يوافق والدها على زواجها مني، ونسيت الفتاة

بسرعة جميع الذكريات الحلوة التي عشناها سوية، ولو كنت تزوجت من ابنة الكلاوي لتربعت فوق الملايين..

ـ صحيح!

ـ كنا نتبادل الحب في بيتنا، وأمام المرآة الموجودة فوق البوفيه كل يوم وغداً في الصباح سوف يعاد عرض جميع فصول ذلك العشق على تلك المرآة. سآخذ المرآة واذهب إلى السيد (كلاوي)، هل تفهم ما أقصده؟ وعندها إما أن يزوجني ابنته أو سيضطر لشراء المرآة.

ـ وإذا رفض؟

ـ هذا سيكون أفضل بالنسبة لي.. عندها سأقوم بعرض المرآة أمام جميع الناس لكي يتفرجوا وكأنهم يشاهدون مسرحية غرامية، وقتها سأجمع مالاً كثيراً ولتحيا هذه المرآة المعجزة.

في ذلك الوقت كان يجري حديث بين زوجة تاجر قطع التبديل وبين (فستق) هانم صديقة الحج عثمان باير ذات العيون اللوزية.

ـ لا أستطيع أن أنسى ذلك الشاب.

ـ هل تقصدين (خالد)

ـ نعم ـ آه.. إنه خالد.. لقد نسيني بسرعة، سأقف الآن أمام المرآة لكي أستعيد تلك الذكريات الحلوة وأعيشها من جديد.

ـ أما أنا فسأنتقم من زوجي وسأعرض عليه أيام شبابي وصباي ليتذكر كيف كان عندما تعرف عليّ، فهو لايحبني الآن.. هذا هو حال الرجال أليس كذلك. كان جميع من في الصالون يتحدث

بسرور عن هذا الاختراع الجديد وهم يتبادلون الضحكات وكانت (فستق) هانم تقول:

ـ آه.. متى سيأتي الغد.

أما أخت زوجة مدير البنك الكريمة فكانت تقول

ـ كيف سأصبر حتى الغد.. لم أعد أحتمل الصبر.. آه للشباب، آه للذكريات القديمة. كان الجميع يتحدث بسرور عن هذه المرايا المعجزة لأن بعضهم سوف يستعيد ذكريات الطفولة، والبعض سيشاهد والدته المرحومة، رن جرس الباب فدخل الطبيب الجراح الشهير (شهاب جناب الدين) وكان ممتقع اللون ويبدو عليه الإعياء للغاية فسأله صاحب المنزل:

ـ ما الأمر؟.. هل أنت مريض يا دكتور.

ـ فقال الدكتور بهمس كأنه أنين:

ـ ألم تسمعوا؟..

ـ ما الأمر يا دكتور؟.. هل هناك أخباراً سيئة؟

ـ وهل يمكن أن يكون أسوأ من ذلك، انتم لاتعلمون شيئاً.. لقد أذاع الراديو قبل قليل أن الأشعة الذرية سوف تعكس على المرايا، ليظهر عليها كل شيء.

أطلق جميع من كان في الصالون الضحكات وقالوا..

ـ وهل هناك أجمل من ذلك.. إنه شيء مسلٍّ يا دكتور.

صرخ الدكتور الشاب قائلاً:

ـ هل أصابكم الجنون؟

- إن هذا الاختراع يعني نهايتي، فهناك في غرفة عملياتي وأمام طاولة العمليات تماماً، مرآة.

- نعم؟..

- هل تفهمون.. لقد أنهيت، جميع عمليات الإجهاض وإسقاط المواليد وأشياء أخرى.. نعم.. سيبدأ عرضها غداً صباحاً!..

لطم جميع الرجال الذين كانوا يسمعونه على رؤوسهم قائلين:

- العمى.

- هذا لم يخطر على بالنا.

- كل الرذائل!..

- حتى الخيانة التي ارتكبتها سراً.. أقصد. يعني قصدت شيئاً آخر.

سمعت النسوة تهامس الرجال، فتنهدت زوجة تاجر قطع التبديل وقالت:

- سوف يقضى على عشرين عاماً من السعادة الزوجية، وسوف يعرف زوجي كل شيء.. سائقه.. وبعد ذلك سائقه الآخر، كل ذلك تم أمام المرآة.

أما فستق هانم فقالت:

- من كان يتوقع أنه في أحد الأيام ستقوم المرايا بمثل هذا الهراء.

ثم قالت زوجة السياسي الكبير حمزة:

- آه يا كلبي العزيز.. كلبي الذكي. همست بهذه الكلمة ثلاث مرات ثم أغمي عليها.

- لقد كنت أمد يدي إلى محفظة نقوده كل صباح عندما استيقظ

من النوم، وكان لايشعر بما أقوم به، أما الآن فسيعرف كل شيء.

ـ قليل من الكولونيا.. بسرعة يا ابنتي.. سوف يغمى عليَّ.

أما حاج عثمان فقال:

ـ كان يجب علي أن لا اقدم على هذا العمل مع الخادمة. كيف اتبعت الشيطان؟

كانت أصوات الآهات والحشرجات تنبعث في جميع أرجاء الصالون وفجأة خيم على المكان صمت رهيب أشبه بصمت القبور. ولم يقطع هذا الصمت سوى صوت الدكتور الجراح شهاب قائلاً.

أيها السيدات والسادة المحترمون!.. هل لديكم أدنى شك في أن هذا الاختراع الجديد للمرايا الذرية سيكون سبباً في القضاء على سعادتنا.

ـ كلا.

ـ قطعياً.

ـ هذه المرايا سوف تقضي علينا.

عندها تكلم الدكتور ببطء وبمنتهى الهدوء.

ـ إن هذه المرايا التي تنعكس عليها الأشعة الذرية سوف تقضي على نظامنا الاجتماعي.

تصاعدت الأصوات هنا وهناك.

ـ نعم ولكن ما العمل؟

ـ هل هناك طريق للخلاص؟

عندها صرخ الدكتور شهاب جناب الدين قائلاً.

ـ هناك طريقة واحدة ألا وهي: أن تقوموا بتحطيم جميع المرايا.

فقال السيد مدني:

ـ هذا لا يكفي يجب أن نهمشها لكي تصبح قطعاً صغيرة.

صاحت السيدة (إيبك) السكرتيرة الحسناء ذات العيون اللوزية بصوت ناعم كالحرير.

ـ يجب أن نسحقها في (الهاون) لكي تصبح كالطحين.

تفرّق المدعوون وذهب كل منهم إلى بيته.

وفي تلك الليلة كنت تسمع في جميع أرجاء المدينة أصوات تكسير وتحطيم المرايا، وكانت هناك ضجة وضوضاء لم تسمع من قبل.

وفي الصباح الباكر كانت الدهشة مرتسمة على وجوه عمال التنظيفات وهم يجمعون قطع زجاج المرايا ويأخذونها من امام البيوت، كانت معظم النفايات عبارة عن مرايا مكسرّة ومسحوقة.

وفي تمام الساعة التاسعة صباحاً وفيما كان صوت الموسيقى ينبعث من المذياع قطع المذيع صوت الموسيقى وقال:

ـ أيها المواطنون.. إن أجمل المرايا في العالم هي من ماركة «المرايا المعجزة».. هذه المرايا تظهر عليها صورتكم عندما تنظرون إليها فقط. وبعد ذلك لا يبقى عليها أي أثر.. انتبهوا إلى الماركة: المرايا المعجزة.. المرايا المعجزة.

وفي يوم واحد أصبح صاحب المرايا المعجزة مليونيراً.

○ ○ ○

٥ ـ العصابة

في ميناء (قاضي كوي) كانت هناك سيدة شابة تصرخ قائلة.

ـ ايواه.. محفظتي، محفظتي!.. إمسكوه، إنه يهرب.

كان الزحام على أشده. هناك شخص حافي القدمين يقفز على الدرج، كل ثلاث درجات دفعة واحدة.

كانت السيدة الشابة الجميلة تتلفت يميناً وشمالاً وتتوسل قائلة.

ـ أرجوكم اقبضوا عليه.

وما أن مرت خمس دقائق على غياب اللص عن الأنظار، حتى شوهد أحد رجال الشرطة وهو يمسك اللص من يده، وقد وضع المحفظة على كتفه وهو ينادي:

ـ محفظة من هذه؟..

كانت المحفظة سوداء اللون، جلدها لامع، وكبيرة. هجمت السيدة الشابة الجميلة فرحة وسط الزحام لكي تأخذ محفظتها وقالت للشرطي:

ـ إنها لي.. آه أشكرك شكراً جزيلاً.

كان الشرطي يمسك بشعر هذا اللص الحافي، لأنه لم يكن يرتدي شيئاً يمكن أن يمسكه منه، كان كل ما يرتديه هو بنطالاً عسكرياً ممزقاً أما باقي جسمه فقد كان عارياً ولا يستره شيء.

قال الشرطي للسيدة الشابة:

ـ من فضلك يجب أن تأتي معي إلى المخفر.

ـ لماذا؟.. المحفظة لي، وهذا الشخص خطفها من يدي أمام مرآى جميع الناس.

ـ يجب أن آخذ إفادتك حتى نستطيع سوق اللص إلى المحكمة..

دخل الجميع إلى المخفر.. الشرطي واللص أولاً ثم تبعتهم السيدة..

وبعد أن استمع رئيس المخفر لإفادة السيدة نظر بقرف إلى اللص الذي كانت تنبعث منه روائح كريهة أشبه برائحة الجيف، ثم قال له:

ـ ولك، ألا تخجل من نفسك؟.. رجل قد الجحش.. اذهب وابحث عن عمل شريف.

كان اللص خافضاً رأسه فتابع رئيس المخفر كلامه.

ـ أريد أن أفهم.. لماذا تسرق؟

رفع اللص رأسه ببطء وقال:

ـ يعني ماذا يفعل باقي الناس.

ـ اسكت ـ ولك..

ثم سأل رئيس المخفر السيدة.

ـ ماذا يوجد في محفظتك.. يا سيدة هانم؟

ـ يوجد بعض النقود.. قلم حمرة، مرآة، وعلبة بودرة.

ماهي النقود الموجودة؟

ـ لم تجب السيدة على سؤال رئيس المخفر، فمد يده وفتح المحفظة الموجودة فوق الطاولة فهجمت السيدة وقالت له:

ـ أرجوك.. لا تفتش في المحفظة، لدي أشياء (محرَّمة) في داخلها.

فتح رئيس المخفر المحفظة وأخرج محتوياتها. لم يكن بداخلها زيادة عما ذكرته السيدة سوى بعض النقود المعدنية ومائتي دولار أميركي.

فسألها رئيس المخفر.

ـ من أين لك هذه الدولارات؟..

ـ أنا لا أريد الادعاء على أحد، أرجوك ناولني محفظتي ودعني أنصرف.

ـ أنا أسألك عن الدولارات؟

ـ وأنا لا أريد محفظتي وسوف أتركها لكم.

ـ لايمكنك الذهاب.. من أين أتيت بالدولارات؟...

أحنت السيدة الجميلة رأسها خجلاً وقالت:

ـ لقد أعطتني إياها (مدام ألين) هذا الصباح.

رفع اللص رأسه ونظر إلى رئيس المخفر، وبدأ يضحك من تحت شواربه.

ـ أين مدام (ألين)؟..

فقالت لهم السيدة الجميلة عنوانها.. همساً.

ركب الجميع، رئيس المخفر، والشرطي، واللص، مع السيدة في سيارة الشرطة وذهبوا إلى منزل السيدة (مدام ألين) وعندما فتحوا أول غرفة شاهدوا رجلاً وامرأة في وضع غير ملائم، وعندما رأى رئيس المخفر أن الغرف الستة التي فتحها وجد فيها ستة وضعيات غير ملائمة صاح غاضباً.

ـ معنى ذلك انك أنت ألين صاحبة بيت الدعارة والتي كنا نبحث عنها منذ ستة شهور!.. من أين أخذت هذه الدولارات؟..

ـ لقد أعطاني إياها أحد الزبائن.. اسمه رضا بك.

أطلق سراح جميع الرجال الذين قبض عليهم وهم بوضعية غير ملائمة لأنهم رجال! أما النساء فقد ساقوهم إلى المستشفى من اجل المعاينة، بعد ذلك ذهب رئيس المخفر والشرطي، واللص، والسيدة الجميلة، وألين بسيارة الشرطة إلى منزل رضا بك، فوجدوه يقوم ببعض الأعمال الإنشائية المخالفة في عمارته. فسأله رئيس المخفر.

ـ ماذا تعمل؟..

ـ أبداً لا شيء.

ـ كيف لا تعمل شيئاً؟ ومن هم هؤلاء البنائين والعمال. معنى ذلك أنك تقوم بأعمال بناء بدون ترخيص!

رفع اللص رأسه ونظر إلى رئيس المخفر وضحك تحت شواربه.

بعد ذلك قام رئيس المخفر بتنظيم ضبط بالأعمال غير مرخصة ثم سأل رضا بك.

ـ من أين أخذت هذه الدولارات؟

ـ لقد أعطاني إياها علي بك.

اتصل رئيس المخفر بمديرية الأمن هاتفياً وطلب سيارة كبيرة ومغلقة، وصلت السيارة فركب رضا بك في السيارة إضافة إلى الباقين وذهبوا إلى بيت علي بيك.

سأل رئيس المخفر علي بك:

ـ هل أنتم من أعطى الدولارات للسيد رضا بك؟

ـ نعم.

ـ لماذا أعطيتها له؟..

ـ لقد باعني حديد من أجل البناء.

ـ التفت رئيس المخفر إلى السيد رضا بك وسأله.

ـ حديد من أجل البناء؟ من أين أتيت به؟.. هل لديك بيانات؟ لا أظن.. معنى ذلك أنك تبيع حديد مهرَّب وفي السوق السوداء.. ثم التفت إلى علي بك وسأله.

ـ من أين أتيت بهذه الدولارات؟..

كان اللص يرفع رأسه وينظر إلى رئيس المخفر ويضحك من أسفل شواربه.

ركب الجميع في السيارة، الشرطي، رئيس المخفر، اللص، السيدة الجميلة، ألين، رضا بك، وعلي بك وذهبوا إلى منزل السيد حسين. كانت هناك طاولة عليها غطاء أخضر وفوقها حوالي عشرة آلاف ليرة، وورق لعب، وزهر، وبعد أن تم القبض على ستة مغامرين واقتيدوا إلى المدعي العام. سأل رئيس المخفر السيد حسين.

- من أين حصلت على هذه الدولارات؟..

- من الميكانيكي نوري الذي يعمل على ظهر الباخرة العائدة من أميركا. ركب حسين مع الباقين في السيارة وذهبوا إلى منزل الميكانيكي نوري، فعثروا في منزل الميكانيكي نوري على كمية عشرة كيلو غرام من الهيروين النقي، واعترف نوري بأنه أخذ الدولارات من السيد إحسان. وقبض على السيد إحسان بالجرم المشهود بتهمة إدارة مصنع للهيروين في منزله القابع على هضبة عن ساحل البوسفور فسأله رئيس المخفر.

- من أين حصلت على هذه الدولارات؟

- من رزان!..

- ومن تكون رزان هذه.

- إنها سيدة تجلب لنا ألبسة نايلون داخلية نسائية من بيروت.

رفع اللص رأسه ببطء، ونظر إلى رئيس المخفر وضحك من تحت شاربيه.

ركب الجميع السيارة وذهبوا إلى بيت رزان.. أفادت رزان بأنها أخذت هذه الدولارات من السيدة نيفين التي تبيع بضائع مهربة، ألبسة داخلية، مايوهات. لكنهم لم يعثروا على هذه الهانم لأنها لم ترجع من باريس. عندها قال الشرطي:

- على أية حال لم يعد لدينا مكان في السيارة.

رفع اللص رأسه ونظر إلى رئيس المخفر وضحك من تحت شاربه. عندها صاح رئيس المخفر غاضباً.

ـ أفهمت يا غبي.. لا تضحك هكذا. لقد فهمنا أنك شريف بالنسبة لهؤلاء.

بعد ذلك تم حبس اللص مدة ثمانية أشهر، لأنه قبض عليه بالجرم المشهود، والآن وبعد أن خرج من السجن بدأ يكسب عيشه كأي مواطن شريف، وإذا شاهد سيدة تحمل محفظة فإنه يهرب منها وكأنه يلتقي بسيدة مصابة بالجذام.

○ ○ ○

٦ ـ غريق في الشاطئ

هذه القصة ليست مختلقة أو خيالية، قصة غرق رجل على الشاطئ.. سأقص عليكم ما رأيته بعيني وما سمعته بأذني.

لم يكن العاملون في مطعم الشاطئ هم السبب في غرقه.

ولكن بمجرد وصول القارب الذي كان يحمل الغريق إلى الشاطئ تحلّق حوله جمع من الفساد والرجال والأطفال المتواجدين هناك. وكانت تقف خلف هذه الجموع امرأة انتابها الفضول، تريد مراقبة الحادث بشكل أفضل. تقدمت إلى الأمام وبدأت تصرخ في الناس قائلة.

ـ ابتعدوا عنه.. إن الرجل سيختنق من قلة الهواء. وكانت تصرخ في الناس وتحاول اختراق الزحام. أخرجوا الرجل من القارب احملوه من رجليه ورأسه إلى الأسفل.

كانت هناك فتاة شابة خرجت من (حمام السباحة) عارية لشدة فضولها وهي تلوح بيدها فرحة وكأنها غنمت شيئاً وهي تصرخ قائلة..

ـ أسرعي ياماما لقد اختنق أحدهم.

وكان الأطفال يصفقون فرحاً.

ـ إيه لقد اختنق.. اختنق.

اخترق السيدة الشابة الجموع ودنت من الرجل الممدد فوق الرمال، وارتمت فوقه بلا وعي، وبدأت تشد شعرها وتضرب رأسها وتقول.

ـ يا حبيبي يا حمدي، يا حبيبي.

ركض رجل بدين ومعتبر نحو المرأة التي كانت تبكي ورفعها قائلاً: أنا هنا.

تأبطت المرأة الشابة الجميلة ذراع ذلك الرجل الأصلع وقالت له:

ـ آه لقد حسبتك أنت يا حمدي الحبيب!..

صحب حمدي الحبيب السيدة الجميلة إلى الكازينو الموجود على الشاطئ. كان يجلس على الطاولة بعض السيدات فقالت إحداهن:

ـ هل في ذلك الرجل شبه بحمدي. فالرجل الذي اختنق طويل القامة، ضعيف البنية، شاب، شعره كثيف، أما السيدة التي كانت تبكي حبيبها حمدي. فحبيبها حمدي، قصير القامة، بدين، عجوز، أصلع. فأجابتهم السيدة التي كانت تبكي هامسة.

ـ كنت أعلم أنه ليس حمدي، ولكني مثلت عليه لكي يعرف مقدار حبي له.

كانت الأصوات تتعالى من هنا وهناك من الناس المتحملقين حول الرجل الممدد فوق الرمل.

ـ دكتور دكتور.. ألا يوجد دكتور هنا؟

ـ افسح المجال يا أخي.. دعوا الرجل يتنفس.

ـ ربما قد مات..!

ـ لعله مات منذ فترة.

ـ اضغطوا على صدره.. افتحوا ذراعيه ثم أغلقوهما.

ـ يا أخي اتصلوا بالمخفر.

ـ لا لزوم للمخفر إنها ليست جناية.. يجب الاتصال بالمستشفى.

ـ دعوا رأسه يتدلى إلى الأسفل.

ـ انتبهوا لاتحركوا يديه لكي لا تسوء حالته!..

في هذه الأثناء حضر المسؤول عن الشاطئ.

ـ أين قليل الناموس باكير، لقد ظننته رجلاً وحسبته منقذاً.. إلى أي جحيم ذهب.

ـ أين يمكن أن يكون.. لابد أنه يسترق النظر من ثقوب أبواب (الكبائن).

ـ انظروا إلى نبضه.

ـ هل ينبض قلبه؟..

لقد أصبح لون وجهه أزرق... مسكين.

كانت هناك امرأة تتكلم مع ابنها.

ـ هل رأيت.. الله يحمينا.. يجب أن لا تسبح بعد الآن في الأماكن العميقة، يجب أن لا يتجاوز عمق المياه طول قامتك.

بعد ذلك حضر العمال وحملوا الرجل من يديه ورجليه ونقلوه إلى إحدى (الكبائن). وأصبح هذا الرجل الغريق حديث جميع من كان في الشاطئ.

ـ لعله انتهى.. لقد بقي تحت الماء لمدة ساعة.

ـ يا أخي.. هل من الممكن أن يتحمل الإنسان البقاء ساعة تحت الماء.

ـ ربما كان يريد الانتحار..

ـ لا أظن ذلك. فهو لا يشبه أولئك الناس الذين ينتحرون، لقد شاهدته بعيني لا يبدو عليه أنه كان يريد الانتحار.

ـ دع عنك يا أخي.. وماذا تفيد رؤيتك له؟.. أنا أعرف أكثر لأن أحد جيراننا قد انتحر.

ـ نرجو من الله أن يحمينا.

ـ كان عليه أن لا ينزل البحر إذا كان لايجبد السباحة! لذلك فإنه يستحق ما جرى له.

ـ اسكتي.

ـ إنه يطفو جيداً. كما يقول أصدقاؤه.

ـ قفز إلى الماء ولم يخرج..

ـ كثيراً ما تحدث مثل هذه الأمور. خاصة إذا نزل إنسان إلى البحر وكانت معدته ممتلئة.

ـ كانوا يشربون العرق!.

ـ هه.. هذه نقطة أخرى. معنى ذلك أنه نزل البحر وهو سكران.

ـ ربما كان يشكو من القلب.

ـ في هذا العمر لا أحد يشكو من قلبه.

ـ ربما تعرض لتقلص عضلي!..

حضر الطبيب وحضرت الشرطة.

تواجد في ذلك المكان أربعة من النسوة كن قد تمددن على الرمال وبدأن بالحديث..

- آه لو رأيته إنه فتى كالنسر.

- عيونه خضراء، جميلة مموجة.

- أهداب طويلة.

- ياحسرة عليه.

- كانت أسنانه نظيفة جداً. بيضاء كحبات اللؤلؤ.

- آه لو كنا نعلم أنه سيموت؟..

كان الرجل قد غرق قبل الظهر، ورغم أنني غادرت الشاطئ في المساء إلا أن الناس الذين كانوا موجودين على الشاطئ لا زالوا يتحدثون عن حواجب الرجل ولون عينيه أو إذا كان له سن ذهب أم لا.

○ ○ ○

٧ ـ مواصفات رئيس البلدية

في إحدى النواحي كانت هناك حملة انتخابات لاختيار رئيس بلدية جديد. وكان مرشحوا الأحزاب القوية يقومون بدعاياتهم الانتخابية، متجاهلين ممثلي باقي الأحزاب، كانت الدعاية الانتخابية قد توقفت في المقاهي والبيوت ومكاتب الأحزاب، وجاء دور إلقاء الخطابات. أحد المرشحين الأقوياء وهو بشير أفندي، الذي يعمل في قسم وكالات الدعاوى منذ ثلاثين عاماً. ومنافسه القوي كاظم أفندي، صاحب البقالية، بعد أن كان مختاراً للبلدة لعدة سنوات، وهو بالكاد يستطيع فك الأحرف، أما الكتابة فلا يعرف عنها شيئاً. يقوم بحسابات دكانه بإشارات اخترعها بأصابع يديه.

وأمام مبنى الحكومة في البلدة، نُصب سرادق، بداخله طاولة من مدرسة البلدة ووضع فوقها إبريق وكوب ماء.

ولما كان الجو السياسي ودياً بين الحزبين المتنافسين، فقد حضر كل من وكيلي المرشحين بشير أفندي، والمختار القديم كاظم أفندي، متأبطاً كل منهما ذراع الآخر. وقد اكتظت الساحة بالجموع التي حضرت من البلدات والقرى المجاورة. كان المرشح بشير أفندي متأكداً من أن صعوده إلى منصة الخطابة أولاً لأنه يعتبر نفسه أكثر الأشخاص معرفة في هذه المنطقة. قال مخاطباً منافسه:

ـ تفضل يا كاظم أفندي وابدأ الكلام !..

قال له كاظم أفندي:

ـ التوبة.. من نكون نحن.. تفضل أنت الآن!..

كان بشير أفندي قد شغل منصب رئيس البلدية ثلاث دورات، وبعد أن أبدى كثيراً من الدلال والتعنت، صعد المنصة، وكان شديد التأثر خلال هذه المدة بعمله في محكمة البلدة كوكيل للدعاوي، لذلك بدأ حديثه مستعملاً نفس الأسلوب قائلاً.

ـ أيها المواطنون.. لقد تلطفتم وانتخبتموني رئيساً للبلدية لمدة ثلاث دورات متتالية، وقد حاولت خلال هذه الفترة أن أكون أهلاً للمسؤولية وذلك بفضل دعمكم ومساعدتكم لي. والآن، ستذهبون مجدداً للانتخابات، وأنا لا أصرّ على أن تنتخبوني، لأن لدي أعمالاً كثيرة بالإضافة إلى أنني تعبت ولولا إصرار الأخوة في الحزب لما ترشحت. لذا فأنتم أحرار في انتخابي أو تنتخبوا غيري «ونظر بطرف عينيه إلى كاظم أفندي» والآن أود أن اشرح لكم كيف يجب أن يكون رئيس البلدية، من وجهة نظري الخاصة وحسب معرفتي، يجب أن يكون رئيس البلدية صاحب تجارب، ناضج ذو خبرة في جميع الأمور. «كان جميع المرشحين هم في سن الشباب ماعدا بشير أفندي وكاظم أفندي». رئاسة البلدية عمل شاق وهي لا تليق بإنسان عجوز تساقط شعره ووضع في فمه طقم أسنان ولديه حشد من الأحفاد «كان كاظم أفندي أكبر سناً من بشير أفندي بأربعة عشر عاماً، وكان شعره متساقط وله طقم اسنان»، ويجب أن لا يتجاوز الخمسين من عمره (كان عمره خمسين عاماً بالضبط). لا تنتخبوا شخصاً لا يفهم بالقوانين والأنظمة لأن أعمالكم سوف

KMH

تتوقف «لم يكن كاظم أفندي يفهم بالقوانين والأنظمة». أنا لاأقول لكم انتخبوني، ولكن انتبهوا فيجب أن لا تنتخبوا إنسانا لا يجيد القراءة ويجهل الكتابة، ورئيس البلدية يدخل إلى جميع الأماكن فيجب أن يكون هندامه مرتباً ونظيفاً. ويجب أن يضع ربطة عنق وإلا فإن شرف الناحية سيتمرغ في التراب «كان لا يوجد في البلدة من يلبس بنطلوناً مكوياً ويضع ربطة عنق سواه» كما يجب أن تكون قبعته مثل قبعتي «وخلع قبعته ليراها الجمهور». لا تنتخبوه إذا لم تكن قبعته من الجوخ فإن ذلك سيقلل من هيبتنا «هو الوحيد في الناحية من يضع قبعة من الجوخ». لا أقول لكم انتخبوني، ولكن الرجل الذي سينتخبونه لمنصب رئاسة البلدية يجب أن يكون كما شرحت لكم.

ثم نزل بشير أفندي من على منصة الخطابة فصاح جميع من كان في الساحة.

ـ كل مايقوله صحيح!..

ـ الرجل معه حق من الأرض حتى السماء.

بعد ذلك صعد كاظم أفندي منصة الخطابة وبدأ كلامه قائلاً.

ـ أيها الآغاوات أرجو المعذرة فأنا لا أستطيع أن أقول جملتين بشكل جيد. إن بشير أفندي قد شرح لكم كل شيء. «وأشار إلى منافسه بشير أفندي». يجب أن يكون رئيس البلدية الذي ستنتخبونه له سن ذهب في فكه السفلي «كان بشير افندي له سن ذهب في فكه السفلي»، «وأشار أيضاً إلى بشير أفندي».. ويجب أن تكون عيناه زرقاوان. «بدأ القرويون بالضحك» «ثم أشار باصبعه إلى السيد بشير

أفندي» ويجب أن يكون على خده الأيسر شامة «احمر وجه بشير أفندي من الغضب» كما يجب أن يكون لدى رئيس البلدية عصا كهذه!.. ويجب أن يضع نظارة فوق أنفه «ضج جميع القرويون بالضحك» ويجب أن يكون اسم رئيس البلدية بشير.

نزل كاظم أفندي من على المنصة، وكان القرويون يشدون على خواصرهم من شدة الضحك، أما بشير أفندي فكان يعض شواربه بأسنانه من شدة الغضب.

استمرت الدعاية الانتخابية لمدة يومين فانقسم السكان إلى فريقين، كان معظمهم يؤيد بشير أفندي، وفي اليوم الثاني تخلى بشير أفندي عن كل لباقته السياسية وبدأ بنشر الغسيل القذر لمنافسه وجعل سيرته على كل لسان، فقد صعد بشير أفندي إلى منصة الخطابة، وبنفس طريقته قال:

ـ أيها المواطنون لقد أصبحت مرغماً على إخراج الحصاة من فمي، فلا أحد يجهل ماقام به هذا الرجل عندما كان مختاراً. كان عندما يحضر أحد الرجال البارزين لزيارة البلدة. إلى أين يذهب؟.. إنه يذهب فوراً إلى بيت المختار أليس كذلك؟.. وفي العام الماضي عندما جاء إلى بيته ثلاثة ضيوف في زيارة خاصة. من أرغم (أمينة) أن ترقص وتلعب معهم لمدة يومين بلياليها؟... إنه هو.

صاح القرويون

ـ إن ما تقوله صحيح.

ـ أيها المواطنون في عيد الأضحى المبارك هل تعلمون إلى أين أُرسلت جلود الأضاحي. التي استلمها المختار من المواطنين؟. هذا

الرجل الذي يريد أن يصبح رئيساً لبلدية، كلكم تعرفون أن في بيته أربع زوجات تزوجهم زواجاً عرفياً. فارتفعت صيحات المواطنين..

ـ ياللعجب!

ـ أيها المواطنون، إن هذا الرجل كان لا يملك سوى دكان في البلد لا أكثر ولا أقل، فكيف استطاع خلال عشر سنوات أن يمتلك نصف البلدة.

بدأت الأصوات تتصاعد من هنا وهناك.

ـ امان.. إنه مختار وشاطر!..

ـ أيها المواطنون لازال الكثير عندي لأقوله ولكنني سأكتفي بهذا القدر، والآن انتم أحرار في أن تنتخبوه أو تنتخبوني!..

بدأ الجميع بالتصفيق والهتاف، وجاء دور كاظم أفندي فصعد إلى المنصة ببطء وهو يبتسم وبدأ كلامه بصوت عادي وهادئ وكأنه يتكلم في المقهى فقال:

ـ كل ما قاله بشير أفندي صحيح. فبشير أفندي رغم انه وكيل دعاوي منذ ثلاثين سنة إلا أنه لا يملك حتى الآن أرضاً مساحتها دونمان، ولايملك زوجاً من الثيران.. إنه رجل شريف.. لايملك عشرو قروش، حتى أنه لا يملك في بيته ما يمكن الجلوس عليه، أو النوم عليه. إذا جاءه أحد الضيوف.. أما بالنسبة لي فكما قال هو لم أكن أملك عشرة قروش قبل أن أصبح مختاراً، والآن أملك أرضاً مساحتها مائتان وخمسون دونماً.. ولدي الكثير من المال والحمد لله، كما أن بشير أفندي يرتدي بنطالاً مكوياً. ويضع على رأسه قبعة من الجوخ. ويعقد ربطة عنق، وأشياء أخرى..

انتهى الكلام، وتفرق الجميع، ولم يبق سوى يومين على موعد الانتخاب.

وفي اليوم الثاني امتلأت دكان المختار كاظم أفندي بالأصدقاء، لماذا تكلمت بهذه الطريقة، فلقد جعلت من بشير أفندي ملاكاً.. هل صحيح أنه لا يملك عشرة قروش؟.. إنه يستطيع أن يشتريك!..

ضحك كاظم أفندي وقال لهم:

ـ دعونا ننتظر لنرى ماذا سيحصل في الانتخابات!..

ـ ماهو.. نحن نعلم انك قد أرسلت جلود الضحايا إلى (القوى الجوية) فلماذا تركته يفتري عليك؟..

ـ دعونا ننتظر لنرى ماذا سيحصل في الانتخابات!..

ـ ياهو.. أين المائتي رأس من الماشية، وأين الأرض التي مساحتها ثلاثين دونم والتي تركها لها والدك مع زوج من الثيران؟.. ثم من جعل أمينة ترقص في الكرم! أليس هو؟..

كان كاظم أفندي يرد عليهم وهو يبتسم.

ـ دعونا ننتظر لنرى ماذا سيحصل في الانتخابات.

انتهت الانتخابات ولم يحصل بشير أفندي على ربع الأصوات التي حصل عليها المختار كاظم «كان القرويون يتحدثون مع بعضهم وهم ذاهبون إلى الانتخابات».

ـ نحن بحاجة إلى طريق، ماء، ماشية، يلزمنا قروض من البنك.. يلزمنا بذار وهذا الرجل بشير أفندي لم يتمكن إلا من إفادة نفسه كل هذه السنين، فكيف سنستفيد منه نحن، إنه فاشل أيضاً لأنه لا يستطيع

أن يجعل المرأة ترقص ولا يستقبل الضيوف في بيته، لذا يجب أن نعطي أصواتنا لكاظم أفندي!..

بعد تلك الانتخابات، أصبح المرشحون لانتخابات رئاسة البلدية يقولون في دعاياتهم الانتخابية، عندما يلقون خطاباً

ـ أيها المواطنون: لدي خمسمائة رأس من البقر، وأربع أزواج من الثيران، وأربع زوجات، وأرض مساحتها خمسمائة دونم. وكل هذا تم بفضل مهارتي وبمدة لا تتجاوز الستة أشهر.

○ ○ ○

٨ ـ للمستأجر ماشاء الله

«الحادثة التي جرت في هذه الحكاية قديمة، ولكن ما هو قدمها، فهذا غير معروف»

ياسيدي البيك العزيز، هل يمكن أن تتوقع مني القيام بمثل هذه الحركات غير أخلاقية، أسترحمك الله أيها البيك المحترم، فأنا رب عائلة، زوجة وأولاد.. ولم أصبح رباً لهذه العائلة بمساعدة الناس والجيران، بل بعرق جبيني، وأستمحيكم العذر، انظروا إليهم ستحسبون أنني عطستهم من انفي. الواقف أمامكم لايمكن أن يقوم بحركة مخالفة للآداب العامة، اعذروني فأنا لايمكن أن أسفّه نفسي لأقوم بمثل هذه الحركات الصبيانية.

أنا لا أكذب ياسيدي الفاضل، لكنني قمت بهذه الحركة (حاشا الحضور) بيدي فقط وسأعرض عليكم السبب يا سيدي. فإذا لم تعطوني الحق فأنا راض بالعقوبة التي ترونها مناسبة. لكنني أود أن اشرح لكم الموضوع من الباب إلى المحراب. لكي تعرفوا سبب تلك الحركة ياسيدي.

الله العليم فقد ورثت عن المرحوم والدي هذا المنزل المهدم الذي نسكن فيه، كان نصيب محسوبكم مقدار الثلث، والثلث الثاني لأخي، هو مثل أخي (الله يقرف عمره) كان موظفاً في المالية. والثلث الأخير مازال موضع نزاع مع صاحبه. ألف رحمة ونور على الوالد ولكم طول البقاء، فبعد أن واريناه التراب لم نستطع أن

نتقاسم هذا الثلث مع عمي وأولاده الثلاثة المحتالين.

هه.. عفواً لقد نسيت أن أعرفكم بنفسي، لم أعد أملك قدرة على التفكير يا سيدي، فهؤلاء الدلالين لا يتركون عقلاً أو تفكيراً لأحد، فقد أصبح عقلي يشرد في الآونة الأخيرة وأصبحت أسرح في جميع الاتجاهات.

محسوبكم يعمل في البلدية في مديرية المقابر، براتب أساسي مقداره خمس وعشرون ليرة واسم خادمكم «حسيب».

كان منزلنا المتواضع مؤلف من خمسة غرف يشغل غرفتان منها يشغلهما ذلك الرذيل الذي كنت أقول له أخي. وأقسم بالله العظيم أنه كان كالدمية بيد زوجته، وهي لو كانت امرأة حقاً لهان الأمر، ولكنها لاتختلف عن الغجريات بأي شيء.

لم تنل أي غرفة في البيت إعجاب هذه المرأة سوى التي أسكنها، ولكي لا تفسد علينا عيشنا كنا نسايرها ونقول لها.

- هيا تعالي واسكني في غرفنا.

كانت تأتي وتسكن، وبعد بضعة أيام تبدأ في المشاكل، أما نحن فكنا نعيش كاللاجئين ننتقل من غرفة إلى أخرى.

محسوبتكم «رفيقة» ولا أقول زوجتي فقد كانت امرأة ذات قلب كبير، حليمة بريئة طيبة للغاية، ويمكنك أن تأخذ اللقمة من فمها بعد أن تضربها على رقبتها.

وفي أحد الأيام رجعت من الدائرة ويا لهول ما رأيت، كانت زوجة أخي قد ألقت مخدومتكم رفيقة أرضاً وداست فوقها وانهالت عليها، يا حفيظ بالضرب بيديها والرفس برجليها. وعندما

حاولت الاقتراب منها.. بدأت بالسعال.. وما أن قلت لها:

ـ يا امرأة أخي.. يا امرأة أخي. لم أدر ما حدث لي.. كان (السفرطاس) النحاسي الذي أخذت فيه طعام الغداء قد أصبح في طرف، ومحفظة الأوراق في طرف آخر، ووجدت نفسي ملقى على الأرض بجانب مخدومتكم رفيقة.

بعد ذلك ياسيدي.. ماذا كنت أقول؟.. هه.. كان ذلك يوماً وهذا يوم لم أعد أشاهد فيه أخي أو زوجته، ولتذهب تلك المرأة إلى الجحيم.

ولا أريد أن أطيل عليكم يا سيدي العزيز.. فنحن نشغل غرفتين وهما كافيتان. فعائلتي مؤلفة من العبد العاجز، ومخدومتكم رفيقة، وعبدتكم كريمة ابنتي، وأخت زوجتي. هه.. نسيت (تاكير وابننا (تاكير) هؤلاء هم أفراد عائلتي. أما الغرف الأخرى فكان فيها مستأجران، أحداهما يسكنها موظف الجمرك (زاتي بك) مع زوجته الهانم ناهد، والغرفة الأخرى يسكنها بائع الفواكة إسماعيل أفندي وتتألف عائلته من ثلاثة أشخاص بالإضافة إلى حماته.

وعندما تدخلون من الباب الخارجي تجدون جداراً حجرياً، وعلى يسار هذا الجدار، المطبخ، وبجانب المطبخ غرفة يسكنها نجاتي أفندي مع عائلته المؤلفة من ستة أشخاص. لقد حضر موظفوا البلدية الفنيون عدة مرات وكشفوا على هذا المنزل ونظموا عدة تقارير تفيد بأن هذا المنزل لا يتحمل هذه الأثقال الناجمة عن كثرة عدد شاغليه، وطلبوا إخلاءه وإخراجنا منه، ولا أمدح لك نفسي فقد تدبرت الأمر مع الموظفين، وقلت لهم لماذا تنظرون إلى أعداد الناس الذين يسكنون

هنا.. لو قمتم بوزن التسعة والعشرين شخصاً القاطنين في هذا المنزل فإن وزنهم لن يتجاوز وزن ثمانية أشخاص، فنحن كالبالونات الجوفاء المملوءة بالهواء، جميعنا ضعاف البنية. صحيح أننا مسجلون في قيود النفوس كآدميين، ولكننا لم نعترض على هذا التسجيل، هم منحونا هذا الشرف ونحن سكتنا، أليس كذلك؟ كما أننا سوف لن نكتب معروضاً لكي يسقطوا قيودنا من سجل الإنسان!.

ظلوا يترددون على المنزل يومياً، وأخيراً قالوا لنا:

ـ سنمنحكم مهلة عشرة أيام لإخلاء المنزل.. تدبروا أموركم!..

ـ كيف سنتدبر الأمور وماهي الطريقة. حتى إذا وافقنا على الإخلاء، فأين سنجد بيتاً؟ سيلقى بنا في الشارع نحن وأولادنا.. ثم إن الدائرة لا تمدد المهلة لكي نبقى في البيت وحتى إذا مددتها مرة أو مرتين فلا يمكن أن تستمر في التمديد.

لا أعرف إذا كنت قد استطعت أن أشرح لكم الموضوع. أما بالنسبة لمخدومتكم رفيقة فقد وُلدت وترعرعت في (أك سراي) ولكنها لاتعرف الذهاب إلى أبعد من دار (والدها). أما الأولاد فشأنهم شأن هذا الجيل سواء أكانوا أناثاً أم ذكوراً فهم لا يعرفون شيئاً.

قلت في نفسي هيا يا حسيب أفندي لقد أصبح كل شيء على عاتقك، هيا شمر عن ساعديك وابدأ بالبحث عن بيت للإيجار، البيوت ياسيدي مثل النار، لا تستطيع الاقتراب منها، وحكاية بحثنا عن البيوت كحكاية الأفعى، ففي الوقت الذي كنا نبحث أو سنبحث عن البيت كان الحزب الديموقراطي قد وصل إلى سدة الحكم، وفتح الحرية للمواطنين. في صباح أحد الأيام فوجئنا بالمعاول والمهدّات أمام

باب البيت. ولو كنتم ياسيدي موجودين بذاتكم العالية لما توسلتم لهم كما توسلنا نحن.

ـ نرجوكم لا تفعلوا شيئاً، لا تخربوا بيتنا، نحن جميعاً عباد الله، كيف تلقوا بنا مع أولادنا إلى الشارع، كما تلقى الأوساخ. فقالوا لنا:

ـ هذا غير ممكن.. لقد صدرت الأوامر..!

فجأة خطرت على بالي فكرة، وكل أفكاري عادة تأتيني بهذا الشكل، فقلت لهم.

ـ إن المهلة التي أعطيت لنا لم تنته بعد!..

لكن اتضح لي يا سيدي انهم لا يريدون هدم المنزل لأنه معرّض للسقوط بل لأنهم يريدون إقامة حديقة خضراء مكانه.

ياسيدي وتاج رأسي، هل من الممكن الوقوف في وجه البلدية مادامت قررت هدم المنزل. إن لديها كثيراً من المهدات لكي تهدم، فهي تستطيع هدمه بسبب تصدعه، أو لإنشاء ساحة خضراء أو حتى ساحة ملعب وهي إذا أرادت أن تهدم جميع البيوت المتصدعة لهدمت معظمها، لأن بيوتنا ماشاء الله قد نامت جميعها على طرف مثل برج بيزا وبضربة واحدة جانبية سوف تتهدم.

لاتنظروا إلى بيتي فهو ماشاء الله سليم وصامد كالحكومة.

ذهبنا إلى القائم مقام لكي نتوسل إليه. ومكثنا ثلاثة أيام في القائمقامية أنا وجميع أفراد العائلة وكما قالوا «العقل بالراس وليس بالعمر» لذا فقد كان أصغر واحد فينا وهو مخدومكم ابني في المقدّمة.

ـ ياسيادة القائم مقام أدام لله دولتكم وعزكم وحفظكم من الزوال،

أتركونا في منزلنا ولا ترمونا في الشارع في هذا الشتاء وهذا البرد والزمهرير.

كان القائم المقام، رجلاً طيباً للغاية، يقولون (إن الدنيا تقف على قرون الثور) كذبوا والله، إنها تقف على رؤوس أمثال هؤلاء الرجال. نعم يا سيدي ماذا كنت أقول لكم؟ هه... في البداية قال لنا القائم مقام!.

ـ القانون. هو القانون!

ـ صحيح يا سيادة القائم المقام القانون هو القانون، لقد آمنا وصدقنا.. وأنتم تستطيعون حتى أن تستملكوا المواطنين وليس البيوت وتقيموا ساحة خضراء. ألم يقولوا في الأمثال أن «اللسان الحلو يخرج الأفعى من جحرها» بدأ موقف القائم مقام يلين أكثر فقال:

ـ سأعطيكم مهلة أسبوع.

فرحنا كالمجانين.. ودعونا له بطول العمر والمركز السامي، رجعنا نحن والأولاد إلى منزلنا فرحين مسرورين.. كانت عيناي لم تشاهدا طيلة خمسة وعشرين عاماً سوى الدائرة، فأنا لم أغب عنها ثانية واحدة. لكن هذه المرة ولتسامحني الحكومة وتغفر خطيئتي فقد أهملت الدائرة هذه المرة. نعم لقد أهملتها ولم أذهب إلى الدّوام.

لدينا في الدائرة موظف اسمه مصباح أدامه الله، له صديق يعمل في مكتب عقاري لتأجير البيوت، ذهبت إليه وعرضت عليه وضعي فقال لي:

ـ والله يا أخي لايوجد في هذا الزمان بيت لأمثالكم، لذلك لا لزوم لإضاعة الوقت. قفزت الدماء إلى دماغي، لكن والحمد لله كان لدي

فقر دم لذلك لم يتسبب لي هذا الأمر بأي مشكلة. ومحسوبكم يا سيدي لم يزعج أحداً طيلة حياته، ولكنني أجبته بمنتهى الجدية.

ـ لماذا لا يوجد بيت لأمثالي؟.. ألسنا نحن من أمة محمد.. نحن إسلام والحمد لله. ولا أمدح لك نفسي فأنا أحد أفراد هذا الشعب.

واعذرني ياسيدي العزيز فقد تكلمت معه بجميع ماجاء على لساني.

عندها أجابني عامل المكتب العقاري قائلاً.

لا تغضب يا أخي، فأمثالك وأمثالي لا أحد يحسبهم آدميين، ثم سألني.

ـ هل تذهب إلى السينما؟

ـ لم أذهب منذ زمن بعيد.

ـ أبداً.

ـ هل تذهب لمشاهدة المباريات؟

ـ لم أذهب طيلة حياتي.

ـ كم كيلو لحمة تشتري في اليوم؟

ـ من الراتب.. إلى الراتب.

ـ هل تتناول الحلوى بعد كل طعام؟..

ـ إذا وجدتها. أتناول منها قطعة في الصباح مع فنجان القهوة.

ـ هل تشتري كتاباً أو مجلة؟

ـ أبداً. ولكنني اقرأ في بعض الأحيان في كتاب «المحمدية» الذي خلفه لي المرحوم والدي.

ـ كم طقم من الألبسة تشتري كل عام؟

ـ كل عام! «شاهد الله عليّ» إن هذا البنطلون الذي أرتديه الآن اشتريته قبل خمس سنوات.

«إن الله ينزل من الثلج كميات تختلف بسماكتها من جبل إلى آخر» وكما تعلم فإن رفيقة هانم زوجتي، هي ربة منزل، فأنا ألبس الثياب طيلة العام الأول، وفي العام الثاني تغسلها، وفي العام الثالث تقلبها على الوجه الثاني، وفي السنة الخامسة ترقعها، وفي السنة السادسة، تفصلها لمخدومكم، وفي السنة السابعة وإذا بقي فيها رمق تبيعها لبائع الألبسة المستعملة، وإذا لم يبق فيها رمق تعمل منها قطعاً لتنظيف الأرض.

ـ هل تذهب إلى الشاطئ أيام العطل الرسمية؟

ـ انزعجت كثيراً لهذا السؤال الأخير وقلت له: عدم المؤاخذة لماذا تسأل كل هذه الأسئلة.

ـ أنا أسألك لأنك أنت الذي فتحت الموضوع، أنت لاتعرف السينما ولا المسرح ولاتذهب إلى البحر، ولا لنزهة وتتحسر عند رؤية اللحم والحلوى.. إيه.. قل لي بربك هل أنت إنسان!.

ظننت أن الدنيا قد وقفت فوق رأسي، ولكنني عرفت كم أنا مغفل، فلو لم يذكرني هذا الرجل في وضعي، وكنت ما زلت أحسب نفسي إنساناً قلت له:

ـ عفواً يا أخي ماذا أفعل؟

ـ لماذا تسألني «لو كان لدي مرهم لمداواة لقرع كنت دهنت رأسي» في هذا الزمان كل إنسان مسؤول عن نفسه، أنا أقوم بأعمال الوساطة العقارية وأجد بيتاً لهذا وذاك، ولكن أين البيوت؟ عملنا يقتصر على أن نضع كل من يأتينا في قفص، ونقف نحن كالذبابة العالقة في مؤخرة الحصان.

فكرت في الأمر فوجدت أن لافائدة ترتجى من هذا الإنسان فقصدت مكتباً عقارياً آخر، شعرت أن الدنيا مازالت ملأى بالناس الطيبين، سألني صاحب المكتب العقاري لتأجير المنازل:

ـ ماهو البيت الذي ترغبه؟

ـ غرفتين أو ثلاثة.

ـ هل ترغب أن يكون فيه مطبخ؟

ـ طبعاً ياسيدي فأنا أريد بيتاً وليس دكاناً. وهل يمكن أن يكون هناك بيت بدون مطبخ.

ـ هل تريد أن يكون فيه مرحاضاً؟

ـ كدت أفقد صوابي وأتخلى عن تهذيبي فقلت له.

ـ عفواً.. لو كنت عازباً فأنا سأحتاجه، فمابالك بخمسة أشخاص!..

ـ هل تفضل أن يكون فيه كهرباء؟.

ـ طبعاً.

ـ تمديدات غاز؟

ـ طبعاً.

ـ مغطس (بانيو)؟

ـ لا بأس إذا وجد.

ـ تدفئة؟

ـ صارت وصارت وهذه مفيدة أيضاً.

ـ هل تريد شقة في بناء، أم منزل مستقل؟

ـ رغم أنها لاتليق بنا، ولكن لابأس بالشقة.

ـ هل يجب أن يكون لها إطلالة؟

ـ طبعاً.

ـ تهوية؟

ـ أوه.. أوه شي يرد الروح.

كان اللعاب يسيل من فمي.

ـ هل تريدها قريبة، من السفن، والسوق، والترام؟

ـ طبعاً هذا شيء مناسب.

ـ هل ترغب أن يكون فيها هاتف؟

ـ لا ادري مالزوم الهاتف، ولكن لابأس من وجود هاتف.

ـ هل تفضل أن تكون مفروشة بالموبيليا؟

ليكن.. ياسيدي.. أنا راض بكل شيء.. المهم هو أن نستر أنفسنا.

هل تدري ماذا قال لي الرجل بعد كل هذه الأسئلة، إن البيت الذي تبحث عنه يا والدي غير موجود، اترك لي عنوانك لكي أسجله في الدفتر.

ـ قلت العمى في عيونك، ولكن قلتها من قلبي لأن تربيتي لا تسمح لي بأن أقول مثل هذا الكلام.

رجعت ياسيدي العزيز بخفي حنين، ماذا أقول لكم « إذا كانت استانبول كالقدر فأنا المغرفة»، لم أترك حياً أو شارعاً في استانبول ولم أسأل فيه عن بيت. كنت أجد بعض البيوت ولكنها غير قابلة للسكن.

أحد أصحاب المكاتب العقارية قال لي:

ـ لدي بيت آجاره رخيص مائتي ليرة شهرياً.

ـ ماذا تقول؟ مائتي ليرة!..

ظن الرجل أن دهشتي ناجمة من رخص آجار البيت فقال لي:

ـ صحيح أن أجاره مائتي ليرة ولكن صاحبه يطلب أجار سنة مقدماً.

ـ إيه..!

ـ يعني أكثر من ألفي ليرة.

ـ ماذا تقول؟

ـ البيت يحتاج أيضاً إلى بعض الإصلاحات، كما أن الساكن الحالي يجب أن يدفع له مبلغ من المال (بدل إخلاء) لكي يخلي البيت، كما أن الإيجارات قد ارتفعت حسب قانون الإيجار الجديد.

ـ نعم..!

ـ سأكتب في العقد أن الإيجار هو مائتي ليرة شهرياً. ولكن يترتب أن تدفع فرقاً مقداره خمسون ليرة شهرياً، واحسب حسابك كم هو مجموع الفروقات لكي نضيفها على الحساب!..

محسوبكم شاطر في الحساب، وفي جرة قلم واحدة عرفت أن الحساب أصبح خمسة آلاف ليرة.. لقد جُنّ الرجل، فهل من السهل تأمين مبلغ خمسة آلاف ليرة نظرت إلى الرجل باستغراب وقلت له.

ـ هل يبدو علي أنني إنسان سيء؟ فقال لي:

ـ استغفر الله.

ـ عفواً.. هل تظن أنني أدير بيتاً للدعارة، أو أنني تاجر مخدرات، أو مهرب. أو أن لدي مكاناً من أجل لعب القمار، أم أنني مرتشي، إن سجلي نظيف والحمد لله، هل فهمت، لقد عشت عمري والحمد لله محافظاً على شرفي وسمعتي.

ـ هذا واضح ولكن لماذا كل هذا الانفعال، فقلت له.

ـ وهل تريد أن لا أنفعل، ألا ترى كيف ترتجف يداي ورجلاي، لقد أتلفت أعصابي، هل يبدو علي أنني إنسان سيء؟ إنني أتأسف عليك كثيراً، فما سبب وجود خمسة آلاف ليرة لدى إنسان شريف مثلي؟..

لقد غضبت كثيراً لدرجة أنني فتحت الباب وخرجت بدون أن أقول له استودعك الله، وتركته مندهشاً.

لا أنسى ذلك اليوم الذي استلمت فيه راتبي الشهري، كان راتبي يتجاوز المائتي ليرة بدون حسميات، ولم يبق في يدي بعد قطع الحسميات سوى مائة ليرة، أصرفها وأنا في طريق عودتي إلى البيت، فأدفع قسماً من دين السمّان واللحّام، والفحّام وبائع الخضرة، وإذا بقي معي بعض القروش فيأخذها الأولاد مني، وهكذا يبقى عبدكم حسيب بدون شيء.

ولكن هذه المرة قررت أن لا أصرف شيئاً من الراتب قبل أن أجد بيتاً.

الأمنية الأولى هي إيجاد بيت ناسب، وبعدها أضع الأثاث في سيارة وأغادر منزلي عند صلاة الفجر، وأهرب قبل أن تفتح المحلات أبوابها، لأنني سأنتهي إذا فتحت المحلات، ولأن جميع أصحابها سوف يجتمعون أمام بيتي، لذلك يترتب علي الهروب باكراً قبل أن يراني أحد، وبعد ذلك يفرّجها ربك وقالوا في المثل «من يأكل الدين، يأكله من جيبه» ولكنني سأقوم بتسديد ديوني فيما بعد بالتقسيط إن شاء الله.

وجدت مكتب عقاري على طريق الترام كان مكتباً ضيقاً، واستمحيك عذراً إذا قلت لك بأنه بمقاس مرحاض بيتنا، كان قد كتب على واجهة المحل الزجاجية إعلانات كثيرة «بيوت للبيع»، «شقق للإيجار» «غرف شاغرة» «مستعدون لتسيير جميع المعاملات العقارية»، «كتابة عرائض» «دروس خصوصية لتعليم البيانو واللغة الفرنسية» «فرص عمل».

مددت رأسي من الباب، وسألته حسب الأصول.

ـ هل حضرتكم دلاّل ياسيادة الأخ؟

بمجرد سماعه لسؤالي هذا فتح فمه وأغمض عينيه وبدأ يصرخ قائلاً.

ـ نحن لا يوجد لدينا دلاّل يا أفندي، نحن هنا مكتب عقاري رسمي، هل فهمت الآن؟

ثم فتح الدفتر وقال:

ـ انظر نحن مسجلون في غرفة التجارة، وندفع الضرائب للحكومة.

استمر في الحديث حتى «ارتخى نابضه» ثم قال بلطف وهدوء:

ـ لا تؤاخذني يا أخي لقد أصابني الصداع لأنني لا أجد قهوة في السوق، فاتلفت أعصابي قليلاً، أرجو أن تعذرني، فقلت له:

ـ أستغفر الله يا أخي، أنا أتفهم ظروفك، خذ راحتك واصرخ كما تشاء، أرجوك أن تصرخ. فنحن إذا لم نصرخ على بعضنا، على من سنصرخ يا أخي.

قال لي الرجل شكراً، واستمر في الصراخ والشتائم لمدة خمسة دقائق، واعذرني وأرجو أن لا تصرّ علي لكي أقول لك ماذا قال.. أبداً.. لن أكون سبباً في إيذاء الرجل.. على كل أعتقد أنك فهمت يا سيدي، أليس كذلك؟

آه يا سيدي لا أفضله عليك فقد كان رجلاً ممتازاً للغاية، ونحن نتعجب في هذا الزمان إذا وجدنا إنساناً طيباً، قال لي الرجل:

ـ عندي لك بيت مناسب، وهو لا يتطلب أن تدفع أي شيء مقدماً ولا خلو رجل.

ـ أرجوك دعني أراه.

أشار إلى الإعلان المعلّق على الجدار.

«على الزبون أن يدفع ٥ ليرات سلفاً لكي يرى البيت. ونحن غير مسؤولين عن عدم قبول البيت من قبل الزبون».

دفعت له خمس ليرات وتوجهنا نحو المنزل، كان صاحب المكتب

يتحدث معي طول الطريق.

ـ بيت كالعلبة، وكأنه قد فصل على مقاسكم، على مستوى الشارع، ولا أريد أن أطيل عليكم يا سيدي، وصلنا إلى البيت، وصعدنا الطابق الثاني، وضغطنا على الجرس، لم يكن أحد في المنزل، فقال لي صاحب المكتب:

ـ ما باليد حيلة. فقلت له.

ـ أمان.. أرجوك ألا تعرف بيوتاً أخرى؟

ـ طبعاً أعرف، ولكنك كما تعلم فنحن نأخذ عمولتنا مقدماً، وقبل أن يشاهد الزبون البيت، فهذا هو موردنا الوحيد. ونحن نسجل كل ذلك في دفاترنا وندفع الضرائب للدولة.

وكما قلت لكم، فقد كان ذلك اليوم هو اليوم الذي قبضت فيه راتبي، لذلك ناولته خمس ليرات أخرى وذهبنا إلى بيت آخر، وكان أيضاً مغلقاً، دفعت له خمس ليرات أخرى.. ومن سوء حظنا كان أيضاً مغلقا.. لايوجد أحد فيه. كدت أبكي عندما أصبح المبلغ الذي أخذه مني صاحب المكتب خمسة وعشرون ليرة. فقلت له:

ـ أستحلفك بالله، وأتوسل إليك، لا أريد أن تعتبرني كورقة اليانصيب وتسحب مني نقودي، وتطوف بي على البيوت دون جدوى!..

عندها قال لي صاحب المكتب بعدما لاحظ أنني تعبت من البحث عن البيوت.

ـ مادام الأمر كذلك، شرفنا في الغد.

ذهبت إلى البيت، وقد أعياني التعب، واستلقيت على الفراش، وكأنني ميت، وفي صباح اليوم التالي، نهضت رغماً عني، وخرجت من البيت. آه يا سيدي، كيف سأشرح لك الأمر. لقد اشتكوا علي بأنني قمت بحركات صبيانية وغير أخلاقية، وأنهم رأوني أشير بإصبعي. انتظر لا تستعجل عليّ أرجوك، سأشرح لك الأمر بالتفصيل.. ومن ثم حكمّ ضميرك. وأنا راض بأي عقوبة ترونها إذا لم أكن على حق.

ذهبت إلى مكتب عقاري آخر وقلت له.

- يا سيدي أضعت يوم أمس كله وأنا ابحث عن بيت للإيجار، وقد صحبني الدلاّل وطاف بي على بيوت كثيرة ولسوء الحظ كانت جميع البيوت مقفلة، لذلك أرجو أن تكون زياراتنا مجدية، لكي لا يذهب تعبنا سدى.

- الحقيقة.. ليست كل أصابعك مثل بعضها. قال لي صاحب المكتب:

- بعض المكاتب لكي تكسب الخمس ليرات يذهبون معك إلى بيوت مغلقة ويضيعون وقت الزبون دون فائدة.. لقد فهمت ذلك وعرفت أنني خُدعت.

قدّمت خمس ليرات لصاحب المكتب بدون أن يطلب مني وقلت له.

- تفضل هذا حقك.

مشينا فوراً وفي الطريق قال لي:

- سوف ترى.. إنه بيت خارق، وأنا رجل لا يهمني المال، وما

يهمني هو تأمين طلبكم. سألته.

ـ ما هو هذا البيت؟

ـ إنه يتألف من ثلاث غرف، ومطبخ كبير، وصالون مضيء، وبلكون واسع، عبرنا الشارع إلى أحد الأزقة، ومن هذا الزقاق إلى زقاق آخر، ومن هناك دخلنا إلى زقاق جانبي، ومشينا في طريق صاعد، وعبرنا إحدى الساحات التي كانت أشبه بمجمع للقمامة، ونزلنا إلى سهل، ثم ذهبنا يميناً وشمالاً حتى وصلنا إلى طريق مسدود فقال لي:

ـ هذا..

ـ نظرت إلى المكان الذي أشار إليه، لم يكن هناك بيت، كانت هناك حفريات وبعض جدران الأساسات، وجدران الآجر المرتفعة قليلاً. كانت الغرف كعلب الأطفال، وذلك واضح من تخطيط أماكن الجدران، كان هناك اثنان من المعماريين وبعض أكوام الرمل والاسمنت والآجر. فسألني.

ـ ما رأيك.. هل أحببت المكان.

لم أجب على سؤاله، كان يتكلم وهو يشير إلى الجدار المبني من الآجر. مقدار نصف متر.

ـ هنا ستكون غرفة نوم نموذجية، وهنا الصالون، والمغطس في هذا المكان.

كان الرجل يشرح الموضوع وكأنه خيال.

ـ المرحاض واسع.. الممر مضاء.. احجز هذا الطابق إذا كنت

ترغب ورفع يده إلى أعلى وأشار إلى الفراغ.

ـ إذا كنت ترغب احجز الطابق الثاني، وإذا كنت لا تتعب من صعود الدرج فاحجز الطابق الثالث.

رفعت رأسي عندما أشار الرجل باصبعه إلى الأعلى، كان الطابق الثالث عبارة عن بعض الغيوم!..

ـ في الطابق الرابع المنظر رائع. ولكن ذلك الطابق محجوز كما حجز الطابق الخامس أيضاً، سألته:

ـ هل ترى أنت خيالاً، أين الطابق الثالث، والطابق الخامس، أين الباب والشبابيك، هل تعاطيت مخدراً؟ أم بلعت أفيوناً، فأنت تلقي كلاماً في الهواء. فقال لي:

ـ سينتهي البيت في غضون ستة أو سبعة أشهر على أبعد تقدير!..

ـ أنت قلت لي أن البيت جاهز؟

ـ طبعاً جاهز.

ـ أين الجاهزية؟

ـ في الوقت الحاضر جميع البيوت التي تؤجر هي بهذا الشكل، وأنت نائم يا عزيزي لأن البيوت يتم حجزها قبل بنائها.

تبين لي يا سيدي العزيز، أن البيوت يتم تأجيرها بمجرد أن يمتلك أحدهم قطعة أرض معدة للبناء، وبعد أن يقوم رسم المخططات، وقبل أن تصب الأساسات يقوم بعرض المخطط على الزبائن، ويؤجر البيوت على المخطط، ويأخذ آجار البيوت مقدّماً لمدة سنة أو سنتين، ثم يحصل على قرض من المصرف وبعدها يقوم بإشادة البناء. وأثناء إشادة البناء

يمكن أن تفقد المسامير من السواق، عندها ستضطر للإنتظار ستة أشهر حتى تصل المسامير من ألمانيا، وحسب العادة فإن ألمانيا ستقول لنا إذا لم تقوموا بتسديد ديونكم فأنا لست على استعداد لأن أرسل لكم حتى ابرة خياطة. عندها تقول حكومتنا لألمانيا، سوف نصدر لكم الأسماك، والدخان، والقواقع، والضفادع، ثم تأتي الوفود التجارية إلينا، يا أخي نحن مبدعون في ثلاث أمور التجارة، والسياسة، وصناعة الحلاوة الطحينية، بعد ذلك يتم إرسال المسامير. ثم يُفقد حديد التسلح من السوق، عندها نقوم بالاتصال بأميركا ونقول لها إما أن تساعدينا في تأمين الحديد وإلا فإن الأمور سوف تسوء أكثر وبعدها ستندمون. وعندما تسمع أميركا بهذا التهديد ولأنها لاتريد أن تسوء الأحوال، تقول لنا وأنا مستعدة لإرسال حديد التسليح إذا كنتم تعدونا بأن لا تستعملوه في أغراض أخرى. وبعد حوالي سنين يصل الحديد. كما يمكن أن يفقد الاسمنت أو الدهان أثناء إشادة البناء، وبهذه الطريقة تشاد الأبنية، وتعمّر البلد. هناك أناس دفعوا أجور بيوتهم منذ خمس سنوات وحتى الآن لم يتمكنوا من استلام البيوت. ومازالت طوابير المستأجرين تقف أمام المكاتب العقارية بمجرد رؤيتهم لمخطط بناء.

أنا لا أثق بكل هذا الكلام. هذا ماكان يقوله لي صاحب المكتب العقاري ثم انهى حديثه قائلاً.

ـ أين تجد الآن بيتاً جاهزاً للسكن؟

قطعت أملي من هذا الرجل وذهبت إلى مكتب عقاري آخر وقلت لصاحبه.

ـ خذ هذه الخمس ليرات وأرجوك، بل اقبّل قدميك، وأكون

KMH

خادمك، لا تأخذني إلى بيت لم يتم بناؤه، ولا إلى بيت مقفل بعد أن غادره سكانه وذهبوا للاصطياف.

ـ قال لي حسناً.

لم أصدقه بشكل من الأشكال، ولكن ما باليد حيلة فالغريق يتشبث حتى بالأفعى.

اصطحبني الرجل إلى أحد البيوت، كان البيت الحالي الذي أسكنه أشبه بالقصر بالنسبة لهذا البيت، جدران البيت تهتز وتكاد تسقط فيما كنا نتجول فيه، وكانت طوابير (البق) على شكل مستعمرات في الجدران المتشققة، أعجبني البيت لأنه لم يكن لدي البديل.

بعد ذلك بدأنا نساوم صاحب البيت، كانت مالكته امرأة ثرثارة، هل تعرف ماذا سألتني، سألتني فيما إذا كنت متزوجاً؟.. فقلت لها:

ـ ليكن في علمك. أنني في الثالث عشر من شهر ربيع الثاني القادم، يكون قد مضى على زواجي إثنان وعشرون عاماً. انقلبت سحنة المرأة وقالت:

ـ هل تقصد أن لديك أولاداً!..

قلت لها وقد انتابني الغضب.

ـ انظري إلي جيداً، أنا لست من الرجال الذين تعرفينهم أنت، هل تريدين بعد كل هذه السنين من الزواج أن لا يكون عندي أولاد؟..

عندها قالت لي السيدة:

ـ أنا لا أؤجر بيتي لشخص لديه أولاداً!..

ـ يا أختي إن أولادي شباب وليسوا أطفالاً صغاراً، فالفتاة في سن الزواج والشاب في سن العسكرية.

ـ لايوجد لدي بيوت للإيجار.

آه يا سيدي العزيز، آه ماذا جرى على رأسي، عدنا من هناك ونحن لانلوي على شيء عندها قلت لصاحب المكتب.

ـ ما العمل الآن يا أخي؟

ـ لدي بيت آخر هل تود مشاهدته؟

ـ دعنا نراه.

مد يده فأعطيته خمسة ليرات أخرى.

في الحقيقة كان البيت هذه المرة مناسباً ويمكنك أن تعيش فيه أنت وعائلتك سعيداً هانئاً. وعندما بدأنا المساومة على مبلغ الآجار. قال لنا صاحب البيت:

ـ ياعزيزي نحن لسنا من الناس الذين يفرمون قلوب الناس.

ـ استغفر الله يا سيدي العزيز.

ـ ولا تظنوا أنني كباقي أصحاب البيوت، حديث نعمة، هناك بعض أصحاب البيوت اللذين يطلبون من المستأجر بدل آجار يساوي قيمة البيت.

ـ نحن لا نشك في ذلك، ومحسوبكم يفهم الناس من أول نظرة. فذاتكم العالية من أصل مبارك، وقلبكم رحيم.

ـ نحن لم نقم بإنشاء هذا البناء كباقي الناس، بالرشاوي والهدايا، لقد أنشأناه بعرق جباهنا.

ووضع أصابعه على وجهه وكأنه يمسح العرق الذي يتصبب من جبينه وصرخ قائلاً:

ـ هكذا كان العرق يتصبب منا. لقد توظفت في البلدية والمالية لمدة ستة أشهر متواصلة لم نأكل ولم نشرب خلال هذه المدة أنا وعائلتي المكونة من ثمانية أشخاص. وقلنا «إذا لم تستطع التوفير من عملك، فوفر من فمك».

ثم التقط نفسه وتابع قائلاً

ـ وهانحن قد استطعنا إنجاز هذا البناء المكون من ستة طوابق كما ترون.

ـ وأنا موظف منذ اكثر من إثنين وعشرين سنة.

ـ نحن لسنا من الناس حديثي النعمة، لقد أحببتكم كثيراً، لذلك سأحسب لكم الإيجار سنوياً.. علماً بأنني لا أقبل من غيركم بأقل من إيجار خمس سنوات. تعرفون أنني مازلت مديناً للعمال بمبلغ ١٥٠٠ ليرة. على كل سوف نتفق بسهولة على بدل الإيجار، أنتم لستم غرباء، فقط أريد إيجاراً شهرياً مقدماً مقداره مائتين وثمانون ليرة.

نظرت إلى وجه صاحب المكتب العقاري، كان يفرك بيديه فرحاً، أما أنا فلم يعد لي طاقة على الكلام فقلت لصاحب البيت.

ـ استودعك الله ياسيدي وخرجت.. وهو لا يزال يردد.

ـ لقد عملت بشرفي موظفاً لمدة ستة أشهر، وصنعت هذا البناء بأظافري وأسناني.

وبمجرد أن خرجنا للشارع وبدون أن أفتح فمي ناولت صاحب المكتب خمس ليرات أخرى فقال لي:

ـ لا. لا. لن آخذها فوجداني لا يسمح لي. ثم تابع كلامه.

ـ لقد لاحظت أنك إنسان نظيف جداً، بارك الله فيك، وأنا بفضلك قد حصلت أجرتي لهذا اليوم، ولكنني قد تألمت كثيراً لأن أصحاب المكاتب الأخرى قد خدعوك. آه يا أخي نحن أخوة في الروح. في هذا الزمن لا يوجد مثلك. ولايوجد بيت للإيجار لأمثالي وأمثالك، وتعلم يا أخي أننا نحن أصحاب المكاتب لايمكن أن نفتح أفواهنا للهواء فلدينا أطفال وعائلة بحاجة لنفقات كثيرة، ونحن قد تفاهمنا مع بعض أصحاب البيوت مسبقاً لاتفهمني غلط. لا أدري ماذا أقول لك، ولا ادري كيف سأشرح لك الأمر.

قطعت كلام الرجل وقلت له.

ـ لقد فهمت يا أخي. فهمت، أنا سأشرح لك الأمر. أنتم تصطادون المغفلين.

ـ هه.. رحم الله والديك.

ـ هم يأتون إليكم ويسألون عن بيوت للإيجار!..

ـ بالضبط «تقول الحقيقة».

ـ وأنتم تقولون لدينا بيوت، وتصحبونهم إلى أصحابها الذين تفاهمتم معهم مسبقاً بعد أن تكونوا قد وضعتم الخمس ليرات مقدماً في جيوبكم.

ـ هه، هذا صحيح.

ـ كنت سأقول له «الله يبليك بالعمى» ولكن تربيتي لم تسمح لي بذلك.

اعذرني يا سيدي فأنا من سبّب لكم الصداع. لقد أمضيت أسبوعاً كاملاً وأنا أطوف على الدلاّلين والمكاتب العقارية. صرفت كل راتبي ولم يبق في جيبي سوى ليرتين ونصف، تضرعت إلى الله وتوجهت إلى (بي أوغلو)، عبرت الشارع الرئيسي، ودخلت في حارات لا أعرفها. فرأيت أحد الدكاكين، كتب على واجهتها الزجاجية العبارة التالية.

«نقوم بجميع أنواع المعاملات»، «نلبي جميع احتياجات المواطنين»، «إيجارات»، «شقق»، و«غرف مفروشة».

بدأت بالبسملة ودخلت

وبعد أن قلت السلام عليكم، وعليكم السلام.. قلت له.

ـ هل أجد لديكم شيئاً يساعدني يا بني!.

نظر هذا الرجل بخبث وضحك أسفل شاربه وقال:

ـ هل تريدونه مناسباً لكم؟

ـ أكيد..

ـ هل تريده رفيع أم واسع؟

ـ لا أحب أن يكون ضيقاً، يجب أن أتمكن من التنفس بداخله وأنا مرتاح.

ـ شقراء أم سمراء؟

ـ هل تسأل عن لون الطرش يا بني، أنا أقوم بأعمال الطرش بنفسي، ولكن فليكن اللون الزهري ترابي.

ـ لغاية كم، تستطيع أن تدفع؟

ـ عشرون، ثلاثون، ولكن بدون «خلو رجل»

ـ لدي ياوالدي في الثلاثين، مناسبة لك تماماً.

ـ أوه.. أوه، آمل أن يكون لنا فيه قسمة.

ـ القسمة لمن يدفع النقود.

لقد سببت لكم الصداع، اتفقنا، آه ياسيدي.. آه ماذا أتى على رأسي بعد كل هذا العمر. خرجت أنا والدلاّل ودخلنا في أحد أزقة (بي أوغلو) الرطبة، التي لا ترى أشعة الشمس، وأرجو أن تصدقني فقد رأيت أماكن لم أرها من قبل رغم أنني عشت كل هذا العمر في استانبول، أشار الدلاّل إلى أحد البيوت وقال:

ـ كان يوجد هنا ما يناسبك يا والدي، ولكن ختم بالشمع الأحمر البارحة ليلاً.

لماذا.؟

ـ لقد قبض عليهم بالجرم المشهود.

ـ لقد أفرحتني، لعلهم قبضوا عليهم فيما كانوا يأخذون خلو البيت من الناس أليس كذلك؟

دخلنا أحد البيوت أخيراً، ماذا أقول؟ كيف سأشرح لكم، لقد تمنيت لو أن الأرض انشقت وبلعتني، كان هناك فتيان بأطوال وألوان مختلفة. لقد وقعت بيد دلاّل متعة، بدل من أن أقع بيد دلاّل بيوت. أنا لم أعرف الفاحشة في حياتي، وأرجو من الله أن لا يكتبها عليّ. صحت غاضباً.

ـ تفه عليكم أيها الأرذال، وهربت إلى الشارع، أنا لم أقرب الحرام حتى أبوس تراب رجلكم، قولوا لي إذا كنتم قد مللتم حديثي، لأن الإنسان إذا تجاوزت همومه الألف يصبح ثرثاراً. خلاصة الكلام أنني لم استطع أن أجد في استانبول هذه المدينة الضخمة. بيتاً آوي إليه. وفي أحد الأيام قلت لزوجتي بعد أن ضقت ذرعاً بنفسي

ـ يا هو.. أين أنتِ؟

ـ ماذا تريد يا زوجي؟

ـ هيا ضعي عليك ملاءتك.

ـ ما الأمر ياسيدي؟

أليست من صنف النساء، اللواتي شعرهن طويل، وعقلهم قصير، الله يقرف رقبة أحسن واحد فيهم، على كل وضعت ملاءتها وخرجنا. مشيت. مشيت حتى وصلنا إلى أضخم بناء وطرقت الباب.

ـ هل هذا الطابق للإيجار.

ـ نعم.

ـ كم الإيجار.

ـ خمسمائة يا سيدي.

دخلت أنا وزوجتي فبدأ صاحب البيت بالكلام.

ـ يجب أن تدفع أجار سنة مقدماً.

وبعد أن طفنا في أرجاء البيت قلت لصاجه.

ـ والله نحن على استعداد لأن ندفع ألف ليرة بدل الخسمائة، ومقدم سنتين بدلاً من سنة واحدة، ولكن بيتك لم يعجبنا مع

الأسف لأنه لايحوي على تجهيزات هواء بارد.

أنهيت حديثي وخرجت فقالت لي زوجتي وهي خائفة:

ـ هل جننت يا زوجي؟

ـ اسكتي أنتم، صنف نسوان!

ذهبنا إلى بيت آخر، تجولنا داخل الشقة، كانت فخمة للغاية، وبساوي أجارها ألف ليرة شهرياً، فقلت لصاحب الشقة ونحن نهم بالخروج.

ـ آه يا عزيزي إن هذا البيت يناسبنا لكن المغطس لايتجه نحو القبلة.. أخيراً وبعد أن فهمت حرمتنا المقصود من سخريتنا بدأت هي تتحدث عندما كنا نتفرج على الشقق الضخمة.

ـ آ.. آ.. ماهذه الشقة الأزهار الرسومة على المشمع، قد بطلت موضتها.

ـ مستعدون لدفع خمسة آلاف بدل الألف لكن لوالب (الشوفاج) لونها باهت.

أمضينا ذلك اليوم حتى المساء ونحن نتمتع بمشاهدة البيوت، وكانت كل ما تقوله مخدومتكم رفيقة مهضوم.

ـ طيلة هذا العمر وأنا زوجتُكَ، ولكنك لم تسلّيني كما فعلت اليوم.

عدنا مساء إلى البيت منهكين، لم يبق في جيبي (شراء نقير) فقد صرفت الراتب الذي كان يجب أن يسترنا لمدة شهر، صرفته على الدلاّلين.

وفي صباح اليوم التالي وقبل أن أشرب القهوة ناديت زوجتي وقلت لها:

ـ هيا اسرعي، قبل ان يحضر البقال واللحام وينتظروننا على باب البيت.

خرجنا من البيت وفوضنا أمرنا لله، اشتريت بما تبقى في جيبي من النقود صحيفة لكي اقرأ إعلانات الإيجار، كانت زوجتي تنظر إلى الأعلى وهي تبحث عن بيت لايوجد فيه برادي على الشبابيك، قلت في نفسي لألق نظرة على الصحيفة. ولكن ليتني لم ألق هذه النظرة. ولا أدري كيف لفت نظري ذلك الإعلان.

«إن السيد حسيب بن المرحوم عبد الرزاق، والمرحومة صافيناز المولود في عام ١٢٨٩ هجرية، والذي تغيب عن وظيفته لمدة خمسة عشر يوماً بدون عذر أو سبب واستناداً إلى المادة.. من القانون.. فقد اعتبر مستنكفاً عن عمله» دار رأسي واسودت الدنيا في عيني، ولكنني ندمت على الخمس والعشرين ليرة التي كنت أسدّ بها رمق عيالي. كما ندمت على أنني قد أضعت الوظيفة ولم أجد بيتاً للإيجار!.

ثم ماهو رأيكم بهذا الإعلان، وماذا يفهم منه؟ هه إنه ابن المرحوم عبد الرزاق.. واستمحيكم العذر فكأنهم يقولون ابن الجحش. هه وهو ابن المرحومة صافيناز، وكأنها أخرجتني كما تخرج البيضة من الدجاجة الميتة.. هه. إنها ميتة، انتبهوا وافرحوا، وأشعلوا الشموع، وحنّوا أيديكم، يا ليتني كنت تراب أرجلكم، أعذروني أرجوكم، لقد بلغت هذا العمر وأنا أحافظ على الرزانة في حديثي. سألتني مخدومتكم رفيقة.

ـ ماذا جرى لك يا زوجي، لقد اصبح وجهك كلون الحائط.

ـ لقد طردوني من الوظيفة.

عدت إلى البيت كان هناك شخص ينتظرني أمام البيت منذ الصباح فقلت له

ـ ماذا تريد؟

ـ لقد جئت لكي أقدم لك خدمة جيدة!.. فقلت للرجل.

ـ أنا لم أتصرف بشكل سيء مع أي شخص، فلماذا يريد الجميع أن يقدموا خدمات جيدة.

فقال لي الرجل:

ـ علمت انهم يقومون باستملاك منزلكم، فهل قبضتم بدل الاستملاك.

ـ كلا لم أقبض بعد، وأخشى إذا قبضته أن يذهب من يدي.

ـ كم سيدفعون لكم؟

ـ هم يريدون أن يدفعوا مبلغ خمسة آلاف ليرة، ولكن حصتي هي ألف ومائتان وخمسون ليرة فقط.

ـ هل تبيعني حصتك بمبلغ ألفي ليرة.

لا أطيل عليكم يا سيدي. قد بدأت يداي ورجلاي ترتجفان بمجرد رؤيتي الألف ليرة، وبدأت في معاملة البيع في ذلك اليوم فوراً. وهذا ليس عيباً فأنا لم أر في حياتي ألف ليرة، وعندما وضعت مبلغ الألفي ليرة في جيبي احترت ماذا أفعل. بدأت أولاً بتسديد ديوني، ثم بدأت ثانياً بالبحث عن بيت للإيجار، ولم يمض سوى

عشرة أيام حتى كادت النقود تنضب من جيب عبدك الفقير ونحن لم نجد بيتاً بعد.

تخلينا عن فكرة البحث عن بيت للإيجار، وعدنا إلى بيتنا المتواضع. آه ياسيدي، آه كيف سأبدأ الحديث، آه لو رأيتم هذا البيت يا سيدي..! كانت الرياح تعصف به، والعفاريت تلعب كرة القدم. لم يبقى هناك منزل فقد أصبح كل شيء خراب، بعد أن أخرجوا أمتعتنا ووضعوها أمام باب المنزل، ووقعوا المستأجرين على ضبط، ولم يبق في البلد شرطي إلا وأخذ بيده معول أو مهدة وشارك في عملية الهدم، لقد كانوا متلهفين على هدم المنزل، وفي بضعة ساعات أضحى المنزل على مستوى الأرض، وفور مشاهدتهم لي قدموا لي ورقة وطلبوا مني أن أوقع عليها. كان مكتوب في الورقة.

«إن بلدية استانبول، وبناء على المخطط التنظيمي المصدق، والذي يقضي بهدم المسكن الفلاني من اجل إقامة حديقة خضراء، ونظراً لأننا قمنا بإنذار صاحب هذا البيت عدة مرات لإخلائه.. وبعد أن نفذت جميع المهل القانونية التي أعطيت لصاحبه.. قمنا بعملية الهدم..

وكان الضبط يؤكد في النتيجة على أنني لم أتعرض أثناء عملية الهدم لأي ضرر.!

- هيا وقع.

- وقعت رغماً عني.

وعلى أية حال فالبيت لم يعد بيتي بعد أن بعته. وزعنا عفشنا على الجيران وتوزعت أنا وعائلتي على بيوت الأقارب ولم أتوقف عن البحث عن منزل للإيجار حتى أصبحت قضية بحثنا عن بيت للإيجار

حديث كل الناس، وكنت كلما سرت في الطريق يتبعني مجموعة من الأطفال المشردين والكلاب ويصرخون بأعلى صوتهم وهم ينشدون بصوت واحد.

ـ ماشاء الله للمستأجر ماشاء الله.. وبشوف بيت إن شاء الله

وفي ذلك اليوم علمت أيضاً أن الرجل الذي اشترى حصتي بألفي ليرة كان له قريب صاحب نفوذ، فقام بالاعتراض على بدل الاستملاك وقبض من البلدية مبلغ عشرون ألف ليرة!..

أخذت هذا الخبر بعد أن عدت أنا ورفيقة ذلك اليوم إلى البيت وقد تورمت قدماي، ونحن نبحث عن بيت للإيجار، لقد مت من التعب، وغرقت في عرقي، وحتى لو أنك جرحتني لما خرج من جسمي نقطة دم واحدة. وفيما كنت في هذه الحالة تعقّبني اللقطاء الموجودين في الحي، أولاد الزنا الذين ولدوا بدون بسملة. ماشاء الله للمستأجر ماشاء الله.. وبشوف بيت إن شاء الله.

عند ذلك فقدت عقلي ولم أعد أدري كيف أتصرف، ولعلي قمت بعمل إشارة مخلة بالأدب كما قالوا، ولو كنت قد عملتها عن قصد فأدعوا الله أن لا يرشدني إلى بيت للإيجار يا سيدي.

○ ○ ○

٩ ـ منزل فوق الحدود

في اليوم الثاني لانتقالنا إلى المنزل، وفيما كنت ماراً في الطريق رأيت رجلاً عجوزاً جالساً أمام نافذة بيته المجاور لبيتنا يقع إلى اليمين، ولما رآني قال لي:

ـ كان من الأفضل أن لا تستأجروا هذا المنزل.

نظرت إلى هذا العجوز بحدَّة وقلت له.

ـ نحن نعرف أنه إذا انتقل أحد المستأجرين إلى بيت جديد، يزوره جميع الجيران ليقولوا له (منزل مبارك)، وليس كما قلت أنت. كان من الأفضل أن لا تستأجروا هذا البيت، ماذا تقصد بهذا الكلام، وهل يخاطب الجار جاره بمثل هذه الطريقة!..

فقال العجوز بلا مبالاة:

ـ السبب فيما أقوله. هو أن اللصوص يسطون على هذا البيت!..

ـ هل يسطو اللصوص هذا البيت فقط، ولا يسطون على بيوت الآخرين؟.

تضايقت كثيراً وذهبت إلى البقال لأشتري علبة دخان وقلت له:

ـ يا أخي هناك بشر لا يعرفون كيف يتكلمون!..

ـ سألني البقال:

ـ خيراً؟..

ـ يسكن جانب منزلنا رجل عجوز خرفان، قال لي فيما كنت ماراً أمام بيته «كان من الأفضل أن لا تستأجروا هذا البيت، لأن اللصوص يسطون عليه».

ـ إن ما يقوله صحيح، وكان من الأفضل أن لا تنتقلوا إلى هذا البيت الذي تدخله اللصوص.

خرجت بدون أن أتفوه بكلمة واحدة، وبقيت منزعجاً حتى المساء. وفي الليل جاء إلينا جيراننا الذين يسكنون إلى شمالنا، وسهروا عندنا حتى منتصف الليل وفيما كانوا يهمّون بالخروج قال جارنا:

ـ البيت جيد ولكن اللصوص يسطون عليه.

لم أستطع أبداً أن أسألهم لماذا يسطو اللصوص على هذا البيت ولا يسطون منزلكم!..

قالوا هذا الكلام وهم خارجون من الباب.

ضحكت زوجتي عندما لاحظت مدى انزعاجي وقالت لي:

ـ ألم تفهم بعد يا عزيزي؟.. هذه إحدى الطرق المتبعة لكي يجعلوا المستأجر يهرب من البيت. هل تقصدين أنهم يخيفوننا باللصوص لكي نترك البيت، لأن البيت آجاره رخيص، وهم يريدون استئجاره لأنفسهم؟..

اقتنعَتْ بهذا الكلام، ولكنني لم استطع النوم في تلك الليلة، وكأنني قد تواعدت مع اللصوص. ها.. لقد أتى.. سوف يأتي.. كنت أنتظر قدومه. وفيما أنا على هذه الحالة غفلت.. ولم أصح إلا على صوت حركة عند الباب الخارجي، قفزت بسرعة وأخذت مسدسي الذي كان تحت الوسادة، ومشيت في الظلام وصرخت.

ـ قف مكانك لا تتحرك وإلا قتلتك، ولأننا انتقلنا حديثاً إلى هذا المنزل، فلم استطع إيجاد مفتاح الكهرباء بشكل من الأشكال. كنت أصطدم بهذا الجدار، فأذهب إلى الجدار المقابل، وأنا أبحث عن مفتاح الكهرباء، وفي هذه الأثناء تعثرت قدماي بشيء كان موجوداً على الأرض، فوقعت، ولعل اللص هو السبب، كدت افرغ المسدس في بطن اللص ولكنه افلت من يدي عندما وقعت على الأرض، فبقيت أنا في طرف والمسدس في طرف آخر. انبعث صوت من هذا الظلام وارتفعت ضحكة يقشعر لها بدن الإنسان.

ـ ها.. ها.. ها..

صحت قائلاً:

ـ ولك هل تظن أننا نقوم بتصوير فيلم رعب محلي. إذا كنت رجلاً هيا اخرج لمواجهتي.

ـ أظنك تبحث عن مفتاح الكهرباء، إنه على يمين الباب. جميع المستأجرين الجدد يجدون صعوبة في إيجاد مكان هذا المفتاح.

كان الصوت يأتي من الظلام، فصرخت قائلاً.

ـ لو مسكتك فلن تفلت مني أبداً. هل تعرف ذلك!

ـ لا أعرف لكن اسمح لي أن أساعدك، وأفتح لك مفتاح الكهرباء.

سمعت صوت مفتاح الكهرباء، أضيئت الغرفة، وقد أصبحت تحت الطاولة عندما وقعت على الأرض، أما زوجتي فكانت تحت السرير، نظرت فرأيت شخصاً أطول مني بمرتين قد انتصب أمامي، تكلمت معه بصوت غليظ بدون أن أتحرك من مكاني، لأنني إذا نهضت ووقفت على قدماي فلن يهابني أبداً قلت له.

ـ من تكون أنت؟

ـ أنا حرامي.

ـ انظر إلي.. أنت لا تستطيع خداعي، وأنت لست حرامي، أنت تحاول أن تخيفنا بأنك حرامي لكي نترك البيت.

فأجابني الرجل.

ـ الآن سوف ترى فيما إذا كنت حرامي أم لا.

بدأ يتفحص أنحاء البيت وكأنه بيت أبوه. وكان يأخذ مايروق له. وهو لا يتوقف عن الكلام.

ـ معنى ذلك أنكم بدلتم هذه الغرفة وجعلتموها غرفة نوم!.. المستأجرون الذين كانوا قبلكم استعملوها كغرفة جلوس. والذين كانوا قبلهم استعملوها أيضاً غرفة جلوس، قلت له.

ـ انظر إلي، إنك تسرقني الآن، وأنا سأقدّم بحقك شكوى فيما بعد.

ودون أن يكترث بكلامي. أو يرفع رأسه. استمر بتفتيشه وقال لي:

ـ روح اشتكي لمن تريد، ولا تنسى أن تهديهم سلامي.

ـ ولكنك ستهرب أنت، إذا ذهبت أنا على المخفر.

ـ لن أهرب!..

ـ والله ستهرب. بعد أن تكون قد أخذت كل مافي البيت، يجب أن أقيدك أولاً ثم أذهب بعد ذلك لكي أخبر المخفر.

ـ النجدة. النجدة.. كانت زوجتي تصرخ هكذا وهي تحت السرير.

دخل الجيران، وكأنهم كانوا واقفين على باب البيت على أهبة الاستعداد.

وبدون أي اهتمام قالوا:

ـ آ. آ. آ. وهذه مرة أخرى يدخل فيها اللص إلى هذا المنزل.

كان بعضهم يتساءل.

ـ لنرى أي اللصوص هو؟..

كان بعض الجيران يعرفون اللص، والبعض الآخر على علاقة جيدة معه. أما اللص فقد كان مستمراً في جمع الأغراض بدون أن تهتز له شعرة واحدة. قلت للجيران.

ـ ساعدوني، لكي أقيد هذا اللص، وأذهب بعد ذلك إلى المخفر لكي أخبرهم. فقالوا:

ـ أنت أعلم بأمورك، ولكن لا نرى فائدة من الذهاب إلى المخفر!..

أصابتني الدهشة، ولم أفهم سرَّ هذا المكان الذي انتقلنا نحن إليه.

بعد ذلك جاءت زوجتي بحبل الغسيل، وبدون أي معارضة من اللص قمنا بتقييده جيداً، ووضعناه في إحدى الغرف وقفلنا باب الشقة ثم ذهبنا إلى المخفر. وبعد أن شرحت زوجتي كل شيء أمام رئيس المخفر، سألها عن عنوان البيت فقلنا له عن العنوان، عندها قال رئيس المخفر:

ـ هه.. ذلك البيت؟

ـ نعم ذلك البيت.

ـ نحن لا نتدخل في ذلك البيت لأنه خارج منطقتنا.

ـ حسناً وماذا يجب علينا عمله؟.. مسكين ذلك الرجل لقد ربطناه دون جدوى.

ـ لو كنتم سكنتم في المنزل المجاور.. كنتم دخلتم منطقتنا وعندها يمكن التدخل.

ـ قالت زوجتي: إن البيت المجاور لنا فيه سكان.. فماذا نفعل الآن؟

لقد اتضح لنا أن المنزل الذي انتقلنا إليه يقع بالضبط على الحد الفاصل بين منطقتين أمنيتين.. قال رئيس المخفر:

ـ إن المنزل هو من اختصاص المخفر «==»

ذهبنا إلى ذلك المخفر وكان موقعه بعيداً، ولم نصل إليه إلا عند الصباح.

شرحنا موضوعنا، فسألونا عن مكان البيت فوصفناه لهم، فقال الشرطي:

ـ هه.. ذلك البيت!

ـ نعم ذلك البيت.

ـ لو كنتم قد استأجرتم المنزل الذي يقع أسفل هذا المنزل مباشرة كنا استطعنا مساعدتكم، ولكن بيتكم خارج منطقتنا.

عندها قالت زوجتي:

ـ واه.. واه.. لقد ربطنا الرجل بقوة.

سألت على أي منطقة يتبع المنزل الذي سكناه فقالوا: الشرطة لا تتدخل في هذه المنطقة، لأنها تابعة لسلطة الدرك، لذا يترتب عليكم مراجعة مخافر الدرك!..

خرجنا إلى الطريق فقالت زوجتي: دعنا نذهب أولاً إلى المنزل لنرى ماذا حل بهذا اللص؟ هل مات أم هو على قيد الحياة؟

صحيح.. معك حق، فيمكن أن يتوقف دمه عن الجريان بعد أن ربطناه بهذه القوة ونكون قد ارتكبنا جريمة بدلاً من أن نعاقب اللص.

ذهبنا إلى البيت فوجدنا اللص كما تركناه فسألته.

ـ كيف حالك؟

ـ حالتي جيدة، ولكنني جائع!..

أخرجت زوجتي الطعام، ومن سوء الحظ، كان الأكل بامية، واتضح أن اللص لا يحب البامية، عندها طلبت زوجتي له شرائح لحم من عند اللحام وقدمتها له مطبوخة. بعد ذلك ذهبنا إلى مخفر الدرك لكي نشتكي على اللص، شرحنا بالتفصيل كل شيء، فسألنا رئيس المخفر عن مكان البيت، فقلنا له عن مكانه، فقال:

ـ هه.. ذلك البيت؟

لقد كان البيت معروفاً من قبل الجميع، فقال لنا رئيس المخفر:

ـ إن الدرك. لا يمكنهم التدخل في شؤون هذا البيت. فهو من اختصاص الشرطة. قلت له:

ـ أمان يا سيدي.. كيف.. لقد ذهبنا إلى الشرطة، فقالوا إنه من اختصاص الدرك. فجئنا إليكم، وها أنتم تقولون أنه من اختصاص الشرطة. لابد من وجود جهة مسؤولة عن منطقة هذا البيت..

عندها أخرج رئيس الدرك خارطة وسألني.

ـ هل تفهمون أنتم بالخرائط؟.. انظر إلى هذا خط التسوية رقم ١٤٠ وهذه هي الأرض الملحية، وهذه القمة هي العلام رقم ٢٠٨ وهذه ه يحدود منطقة الدرك، ولو كان بيتكم على بعد مترين إلى الشمال الغربي. عندها يدخل بيتكم منطقتنا.

ـ من أجل مترين؟ ساعدنا أرجوك، ماذا سيحصل إذا ساعدتنا؟

ـ لايمكن. نحن نعرف ماذا يحصل، لكن أنتم لا تعرفون!..

أشار إلى الخريطة ثانية وقال: انظروا. هذا منزلكم. إنه يقع على الخط الفاصل بين منطقتي الدرك ومنطقة الشرطة، هل فهمتم. إن حدود منطقتنا تدخل لمسافة مترين ونصف في حديقة منزلكم، ولكن السرقة لم تتم في الحديقة.

ـ لم يكن هناك بدّ من الذهاب مرة ثانية إلى الشرطة، عندها قالت زوجتي:

ـ أمان لنذهب إلى البيت لكي نتفقد اللص، إذا مات.. الله يحمينا.. ستقع على رأسنا مصيبة.

ذهبنا إلى البيت وسألنا اللص.

ـ كيف حالك.

ـ عطشان.. الحقوني بالماء.

ثم قال لنا بعد أن شرب الماء:

ـ انظروا إليّ، أنا أحذركم لأنكم تحجزون حريتي وهذا ليس من حقكم وسأشتكي عليكم عندما أخرج من هنا. فقلت له:

ـ ما العمل يا أخي فنحن لا نعرف ضمن أي منطقة يقع هذا المنزل

اللعين لكي نشتكي إليهم. ماهذا البيت؟.. هل يمكن بناء بيت في مثل هذه المنطقة اللعينة؟ لقد تم بناؤه فوق الحدود تماماً.

ـ نعم ألم اقل لكم.. ولكنكم لما تأبهوا لكلامي... لذلك سأجركم إلى المحاكم لأنكم حجزتم حريتي. فقلت له:

ـ أمهلنا حتى المساء لكي نراجع الشرطة للمرة الأخيرة.

ـ إذا كنت تريد الذهاب فاذهب، ولكنني أعرف كم سيستغرق معكم هذا الأمر. عليهم قبل كل شيء أن يتخذوا قراراً إلى أي منطقة يتبع هذا المنزل، أو أن يبدّلوا حدود المناطق، وأعطني عمراً حتى ذلك الوقت!..

ذهبنا مرة أخرى إلى الشرطة، فأخرج لنا رئيس المخفر خارطة وقال:

ـ انظروا. هذه هي حدود الدرك. الحديقة هي من اختصاص الدرك. أي أن هناك قسم من بيتكم هو ضمن منطقتنا، والقسم الآخر ضمن منطقة الدرك.

فقلت له:

ـ معنى ذلك أن غرفة النوم هي ضمن منطقتكم، والسرقة جرت في غرفة النوم فأجابني.

ـ حسنا ولكن يجب تثبيت ذلك، ثم أن هذا اللص لم يحلّق في الجو لكي يصل إلى غرفة النوم، لابد انه مر من الحديقة، والحديقة تابعة للدرك. على كل هذا موضوع يحتاج إلى وقت للدراسة. لكي نرى إلى أي منطقة يجب إخضاع هذا المنزل، وسوف نتصرف على ضوء ذلك.

وفيما كنا عائدين إلى البيت صاح علينا ذلك العجوز الذي يسكن إلى اليمين من نافذة بيته وقال:

ـ العوض بسلامتكم. علمت أن اللص قد دخل بيتكم!..

ـ نعم لقد دخل.

ـ لا أحد يستطيع البقاء في هذا المنزل لذلك إيجاره رخيص. كما أن صاحبه لا يسكنه، ولايجد مستأجرين، وهو يرى أن يهدم المنزل وينقله مقدار مترين. ليدخل في المنطقة تماماً. لكنه أجره لكم عندما وجدكم أخيراً.

عندها قالت زوجة الرجل العجوز:

ـ ليس الذنب ذنبكم. إن المسؤولية على صاحب البيت فهو يفكر بالماء والكهرباء وتمديدات الغاز والمناظر الطبيعية. ولم بفكر ضمن أي منطقة يقع هذا البيت؟ هل من المعقول أن يبني أحدهم منزلاً بهذا الشكل، فوق الحدود تماماً.

لم نستطع أن نترك البيت لأننا كنا قد دفعنا آجار سنة مقدماً.

دخلنا المنزل، وأطلقنا سراح اللص بعد فك وثاقه وجلس الحرامي معنا على مائدة الطعام وتناولنا العشاء سوياً. وبعد ذلك ودعنا قائلاً.

ـ استودعكم الله، اسمحوا لي بالانصراف، سأراكم فيما بعد.

أصبح عدد اللصوص المقيمين في بيتنا حتى الآن أربعة، أو خمسة لصوص، وكانوا معروفين من قبل سكان الحي، أقمنا معهم علاقة جيدة، وتضامنّا معهم من أجل حماية منزلنا لكي لا يدخله لصوص آخرون أغراب، وسوف نرى ماذا يحل بنا بعد انتهاء العقد؟.. فإما أن

نبقى في هذا البيت مع ستة لصوص، ونحن إثنان ثمانية. أو أنهم سيضمون منزلنا إلى منطقة ما، عندها يمكننا تقديم الشكوى اللازمة إلى مخفر منطقتنا إذا زارنا أحد اللصوص، ولكننا اعتدنا على بعضنا كثيراً. ومن المعيب أن نشتكي عليهم بعد الآن، وخاصة أنهم يشاركونا أيضاً في بعض مصاريف البيت.

○ ○ ○

١٠ ـ صبري أفندي (الستربتيز)

أيقظ بقال الحي صبري أفندي من نومه، ولم يتركه مرتاحاً حتى في يوم العطلة، فصرخ غاضباً:

ـ سأهرب، سأنجو بنفسي وأهرب !

فقالت له زوجته:

ـ اهرب إذا كنت تستطيع الهرب.. فأنا سأهرب قبلك. ولكن أجبني الآن ماذا ستقول للبقال؟

منذ شهرين وحتى الآن لم نتمكن من توفير مبلغ إثنين وستين ليرة وأربعة وثلاثين قرشاً لكي نسددها له.

ـ الرجل معه حق.

ـ طبعاً..

ـ قولي له أنني غير موجود!..

ـ لا أستطيع أن قول ذلك. فقد يسيء الأدب.

ـ قولي لوالدتك، لكي تقول له أنني غير موجود.

ـ هل تريد لهذه للمرأة العجوز أن تكذب بعد هذا العمر؟

ذهب صبري أفندي إلى الباب رغماً عنه وقال للبقال:

ـ اعذرني يا (تاناش) أفندي. والله يا أخي أنت معذور. إذا قلت أي شيء. ولكن اعذرنا فنحن لم نتمكن من أن نجمع الرأسين مع بعض.

ـ ولكنك وعدتني يا صبري أفندي أول الشهر وهاقد مضى عدة أشهر..

ـ صحيح.

ـ لن يتبقى لي من الاثنين والستين ليرة سوى ليرتان.

ـ معك حق.

ـ لقد مللت المجيء. كل يوم عطلة. كل يوم عطلة..

ـ أعدك يا (تاناش) أفندي. أعدك يا مسيو (تاناش). هذا الأسبوع إن شاء الله هذا الأسبوع.

ـ كم عدد المواعيد التي وعدتني بها صبري أفندي؟

ـ هذا آخر موعد.

ذهب (تاناش) أفندي غاضباً. ودخل صبري إلى بيته وهو يلعن ويشتم.

ـ العمى يضرب هالعيشة..

فقالت له حماته:

ـ لاتبدأ بالعمى والشتم منذ الصباح.

كان صبري أفندي رجلاً كالحمل الوديع، وقد تزوج منذ عشرين عاماً ولم ينعم عليه الله بالأولاد...

قُرع الباب فقالت زوجته:

ـ إنه صاحب البيت.

ـ آه يا ربي.

وبقي في مكانه صامتاً لايبدي حراكاً إلى أن غادر صاحب البيت، بعد أن غرق صبري أفندي في عرقه.

ـ سأهرب.. سأذهب إلى بلاد لا يعرفها أحد، ولايمكن لأحد أن يراني هناك وسوف أتسول. سأتسول.. هل هناك ماهو أسوأ من ذلك؟ ماهذا؟ اسمي صبري أفندي.. آه يا ربي.. يا هانم! أريد فنجان قهوة.

ـ هل لديك قهوة يا عزيزتي.. لايوجد قهوة، أو سكر.

ـ آه يا ربي ماهذه الحياة؟

صرخت حماته من الداخل.

ـ اسكت ـ اسكت. هذه مشيئة الله.

ـ ليذهب.. دعيه يذهب.. التوبة.. التوبة استغفر الله، فليذهب إذا كان لديه المقدرة على الذهاب. التوبة ياربي.

فقالت زوجته:

ـ سيأتي بائع الماء (السقًّا). ما العمل؟

ـ افعلوا ما تريدون، أكاد أجن، السقا، والبقال، وصاحب البيت، لقد تحالفتم جميعكم علي لأصبح مجنوناً وتحملوني بعدها إلى العصفورية.

قرع الباب

ـ هل هو السقا.

ـ كلا إنه أحمد أجير اللحام.

ـ قولي له أنني غير موجود، قولي له لقد مات صبري أفندي. مات ولكم طول البقاء. التوبة.. استغفر الله.. ماهذه الحياة؟..

لم يعد يستطيع التحمل أكثر من ذلك بعد أن أتى الحارس والجابي واللحام وهمَ بارتداء بنطاله وجاكيته.

ـ لقد كان في جيبي ليرتان ونصف، أين اختفوا يا هانم؟

ـ أنا أخذتهم.

ـ وكيف تأخذينهم بدون أن تسأليني؟

ـ آ. آ. آ. وماذا كنتَ تريدني أن أفعل؟ هل كنت تريد أن نبقى جائعين، فأنا لم أصرفهم على نفسي.

ـ آه يا ربي.. ىه يا ربي. ماهذه العيشة.. ماهذه الحياة.. التوبه، استغفر الله.

خرج إلى الشارع وهو لا يملك شروى نقير. فبدأ يكلم نفسه.

ـ ماذا أفعل.. ماذا افعل.. ماذا أفعل.. خطر على باله صديقه حمدي، فهو لم يراه منذ عدة سنين، وقد علم أنه أصبح غنياً، وهم أصدقاء عمر. فقرر أن يذهب إليه ويشرح له وضعه بالتفصيل، ويطلب منه أن يقرضه مبلغاً. يصل إلى خمسين ليرة.

ـ سأطلب منه هذا المبلغ.. وسوف أذوب خجلاً، علماً بأن لساني يخجل من طلبه. ولكن من لا يلبي الطلب يخجل مرتين.

لم يكن لديه حتى قيمة بطاقة ركوب (أوتوبيس) أو (حافلة) فذهب سيراً على الأقدام.

ـ ما العمل إذا لم أجده في البيت.. اللعنة.. ماهذه الحياة.. التوبة استغفر الله لقد غابت وحلّ الظلام.

ـ يمكن أن يكون قد انتقل من منزله؟ الله.. ماهذه الحياة يا ربي.

ـ واي يا عزيزي صبري، واي يا عمري! واي يا روحي.. أين أين أنت.. من أين أتيت؟..

كان حمدي صديقاً قديماً فاستقبله هذا الاستقبال الحار.

وجهز مائدة على شرفة المنزل. وكان يتعاطى الكحول بهدوء. أما صبري أفندي فقد أنهكه التعب وتورمت قدماه من المشي، وكان يتضور جوعاً.

ـ حسنا فعلت إذ أتيت.. فهذا الزقوم لا يمكن أن يشربه الإنسان بمفرده.

بصحتك..

لم يكن على الطاولة شيئاً من الطعام أو المازة سوى بعض حبات الحمص.. لذلك اكتوت معدة صبري أفندي من شرب الكحول.

سأله صبري أفندي وهو خجل.

ـ أخي حمدي أين زوجتك؟.. لقد لمحت امرأة أخرى قبل قليل!..

ـ أو أو.. لقد بدّلت أربعة نساء بعد أن تخلصت من زوجتي الأولى، إنك على نياتك يا صبري فأنا لست غبياً لكي أقضي عمري كله مع امرأة واحدة. فأنا لست مغفلاً أو حماراً لهذه الدرجة. أُنظر، فأنا لايمكن أن أبقى مخدوعاً بامرأة واحدة كالثور؟. لنشرب.. في صحتك.

بدأت رأس صبري أفندي تدور، وبدا يشعر بالغثيان، فهو لم يتعود شرب الكحول، وهو لم يشربه سوى مرة واحدة في عرسه، ومرة أو مرتين في المناسبات، وحتى لا يكسر بخاطر الحضور، وعندما يشرب

لا يشرب أكثر من نصف كاس. أما الآن فقد شرب لكي لا يشعر بالجوع. كما أنه شرب جميع الأقداح التي قدمها له حمدي، حتى بدا الشرر يتطاير من عينيه.

استمر الاثنان في تعاطي الكحول حتى ساعة متأخرة من الليل، وبدأ صبري أفندي يشعر بألم حاد في معدته، ويحاول أن يتحمل الألم، فقد وقع في حيرة. كيف سيطلب منه وبأي طريقة... أن يقرضه مبلغاً من المال... شيء صعب. لم يعد لديه الجرأة. وهو يخشى من طلب مبلغ صغير لكي لا يشعر حمدي بمدى حرمانه. كما أنه يخشى من طلب مبلغ كبير خوفاً من صديقه الامتناع بحجة عدم حوزته مثل هذا المبلغ.

«اللعنة.. لماذا أعيش هذه الحياة.. التوبة».

سأله حمدي:

ـ ما بك؟

عاد صبري أفندي ليقول:

ـ أبداً لا شيء.

لقد تخلى عن فكرة طلب الخمسين ليرة.. واكتفى بطلب ليرتين ونصف.. كي لا يذهب إلى بيته سيراً على الأقدام في آخر الليل.

ـ سأهرب.. سأنجو بنفسي واهرب.. آه ياربي... ماهذه الحياة.. التوبة..

ـ ماذا تقول يا صبري؟ هيا.. دعنا نشرب.. في صحتك.

تخلى عن طلب النقود. وتمنى لو أنهم أخرجوا له بعض الطعام.

قال له حمدي:

ـ هيا دعنا نذهب، سنركب سيارتي ونذهب إلى إحدى الملاهي الليلية، فأنا لم أزر هذه الأماكن منذ أربعين سنة. أنا لن أدعك هذه الليلة، لقد علمت بأن هناك راقصة، ترقص وهي عارية تماماً، هل سمعت. هيا أفرغ كأسك.

كانوا قد شربوا زجاجتين من الكحول فركبا السيارة وهما يترنحان.

ـ كانت الراقصة تخلع ألبستها وهي ترقص، حتى تصبح عارية تماماً كما ولدتها أمها.. إنهم يسمون ذلك (ستربتيز) على ما أظن.

احتار صبري أفندي في أمره، هل يطلب منه؟... وكيف يطلب؟.. كان يخشى أن يقول له صديقه. هل أتيت بعد كل هذه المدة لأقرضك خمسين ليرة ؟.

آه ياربي.. ماهذه الحياة.

كان الملهى مزدحماً حتى نهايته، وبالكاد استطاعوا إيجاد طاولة.

ـ افتح لنا زجاجة يا كرسون.. لا نريد مازة،، يكفينا الفستق والبندق، والقضامة.

ـ تحمل يا عزيزي صبري.. بصحتك.

كان سينهض فوراً لو أعطاه الخمسين ليرة.

ـ بصحتك.. هيا يا صبري.

بدأ عزف الموسيقى، وأضيئت (الأنوار الكاشفة) على المسرح.

وخرجت امرأة إلى وسط المسرح، وبدأت ترقص!.. خلعت الفستان. العمى! لقد نسي صبري أفندي كل تعبه وجوعه، كما نسي أن يطلب إقراضه المبلغ.

كانت المرأة مستمرة في الرقص، فخلعت حذاءها، أساورها، وقرطها. وبدون أن يقول حمدي لصبري أفندي «هيا بصحتك». قلب صبري أفندي القدح على فمه وشربه حتى الأخير.

خلعت المرأة أربطة الكلسات ثم خلعت الجوارب، ولم يبق على جسمها سوى الصدارية ولباسها الداخلي.

- في صحتك.

- في صحتك يا عزيزي حمدي.. في صحتك يا حمدي.

كانت المرأة ترقص وتلقي بألبستها الداخلية فوق طاولات الزبائن..

حمالة الصدر.. نعم لقد خلعتها، خلعتها ورمتها في الهواء. وخطت تلك الحمالة الصفراء دائرة في الهواء. وحطت بين كفي صبري أفندي مثل طائر كناري.

- الله.. الله... هيا يا حمدي.. في صحتك.

كان صبري أفندي يشير بيديه إلى حمالة الصدر.

هاج الجميع بعد أن خلعت المرأة كل شيء، وعلت أصوات الصفير، والتصفيق، والشوّك والأقداح. وكانت المرأة ترقص، ويرقص صبري بيك أيضاً ولم تكتف بهذا القدر.. بل نزلت هذه الحسناء العارية من المسرح، وسارت حتى وصلت إلى صبري بيك وقبلته من صلعته التي تشع نوراً. كان كل شيء يرقص حتى المكان.

أطفئت الأنوار، ولما أنيرت من جديد كانت الفنانة قد اختفت.

خرج الصديقان من الملهى وهما يسندان بعضهما، ولم يعد صبري بك يذكر كيف نزل من السيارة، وأين نزل!..

كانت حماته تزمجر قائلة

ـ انهض ولاك. انهض. أقول لك انهض..

ماذا جرى لذلك الرجل الذي يشبه الملاك؟ حتى فرت زوجته من فراشها.

ـ هيا اخلعي ثيابك.. هيا.. وأنت أيتها العجوز اخلعي ثيابك أيضاً.. اخلعوا ثيابكم وإلا قتلتكم.. هيا اخلعوا بسرعة.

كانت السيدتان تخلعان ثيابهما وهما ترتجفان من الخوف، وخلع صبري ثيابه أيضاً بما في ذلك قميصه الصوفي الزهري ذو الأكمام الطويلة، كما خلع سرواله الطويل المرقع.

ـ وأنتم اخلعوا أيضاً.. ولك اخلعوا!

كان ثديا حماته المتهدلين يهتزان.

ـ اخرجوا إلى الشارع.. هيا اخرجوا.. وإلا قتلتكم.. فوالله سأخنقكم.

خرجت إلى الشارع ثلاثة أجسام هزيلة عارية كما ولدتهم أمهاتهم.

ـ هيا ارقصوا!..

بدأ صبري أفندي يضرب برجليه على الأرض و(يفقش) بأصابعه وهو يرقص ويهز بطنه.

ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن لازال صبري أفندي يرقص ويهز بطنه وهو عار الجسم.. والآن يقولون عنه في مستشفى الأمراض العقلية صبري (السترىتيز).

○ ○ ○

١١ ـ لبعضهم حسن الطالع، ولبعضهم العمى صالح

لم يترك مكتباً من المكاتب التي تهتم بإيجاد فرص عمل إلا وقصده، ولم يقرأ إعلاناً في أي جريدة عن فرصة عمل إلا وركض خلفه.

ـ اترك لنا عنوانك، وسوف نخبرك نحن، وبمجرد كتابة العنوان على التقويم الموجود على الطاولة، فمعنى ذلك أن لا أمل يرتجى من هذه الكتابة. وعند عودته إلى البيت في المساء، كانت زوجته تبادر بسؤاله فوراً، «هل وجدت عملاً». فيقول لها: إن إيجاد العمل في الوقت الحاضر، أصعب بكثير من إيجاد النقود التي تسقط منا في الطريق. عند ذلك تبدأ زوجته بإطلاق قذائفها ذات العيار الثقيل فتقول له.

ـ أنا لم أر في حياتي إنساناً فاشلاً وقليل الحيل ومهمل مثلك!.

ـ لقد وعدني أحد الأصدقاء قائلاً. تعال في الغد ومن المؤكد أننا سنعمل شيئاً.

ـ ماذا سنعمل؟

ـ عمل يا عزيزتي!

لقد جعلت منه زوجته رجلاً كاذباً رغماً عنه.

ـ ماهو نوع العمل؟..

ـ عمل جيد، عمل رائع، عمل ممتاز!

ـ لقد فهمت، ولكن ما هو نوع هذا العمل؟..

ـ أعتقد.. إنه عمل يتم بواسطة الرجل.. ولكن وأنت جالسة في مكانك.

ـ وهل يمكن أن يكون هناك عمل يتم بواسطة الرجل وأنت جالس في مكانك؟

ـ طبعاً.. سأقوم بأعمال الخياطة.. بماكينة الرِجل.

وكم سيدفعون لك؟..

ـ ثلاثمائة ليرة.

استمرت في طرح الأسئلة وتلقِّي الأجوبة، وفي مساء اليوم الثاني سألته زوجته.

ـ هل بدأت العمل؟

ـ لقد ذهبت.. ولكن من سوء الحظ. توفيت زوجته، وأخبروني بأنه سوف لن يأتي إلى العمل قبل يوم الأربعاء.

مرت أيام أربعاء، وأيام خميس، ولم ينته الكذب والخداع، وفي آخر الأيام هددته قائلة.

ـ أنت إنسان مسكين. تعودت على الكسل، وإذا لم تجد عملاً في الغد، فسوف لن أسمح لك بأن تخطو خطوة واحدة نحو عتبة هذا الباب.

وفي اليوم الثاني. ذهب إلى أربع أو خمس مكاتب وترك عنوانه أيضاً وفي المساء عندما رجع إلى البيت لم تفتح له زوجته الباب فنادى عليها قائلاً.

- بشرى يا زوجتي العزيزة... لقد وجدت عملاً.. أنا باشرت في العمل. فتحت زوجته الباب، وشرع يحدثها بفرح عن عمله الجديد، وكان يتكلم كلاماً كالشهد. حتى كاد يصدق نفسه بأنه وجد عملاً!..

عندها قالت زوجته:

- أمان. يجب أن تنام باكراً، وتنهض في الصباح الباكر، كي لاتتأخر عن عملك. وفي الغد ودّعت زوجها، وخرج الرجل من البيت وبدأ بالتسكع في الشوارع والحدائق، ولم يترك مكاناً إلا قصده بأمل أن يجد فرصة عمل، وفي المساء عاد إلى بيته شأنه شان جميع الرجال الذين أمضوا يومهم بالعمل الشاق.

استمرت الحياة على هذا المنوال خمس وعشرون يوماً. وكان المسكين يزداد اضطراباً كلما قرب موعد قبض الراتب، كان قد أخبر زوجته بأن راتبه ثلاثماية ليرة، وكانت زوجته تخبره كل يوم وبحماس منقطع النظير على أوجه صرف هذه الثلاثماية ليرة، فقال لزوجته:

- من الأفضل أن تأخذي الأولاد وتذهبي إلى بيت أهلك، ولا تعودي إلى البيت إلا في أول الشهر حيث أكون قد قبضت الراتب!..

وبدون أن تفتح المرأة فمها أخذت الأولاد إلى منزل أهلها. كان الرجل قد اتخذ قراره!.. سوف يسرق.. وقد عاين البيت الذي سوف تتم سرقته، أطفئت الأنوار في الطابق الثاني الذي ينوي الدخول إليه، وبعد قليل لمح سكان هذا الطابق، فقد كانوا معتادين على الخروج كل يوم، وفي مثل هذا الوقت، إما إلى السينما أو للسهر لدى أحد الجيران. وضع خطة جيدة للدخول إلى المنزل بسهولة وبدون أي خوف. فقفز

فوق جدار الحديقة المنخفض، ومسك حديد النافذة ثم تسلق ماسورة المياه، ووصل بسهولة إلى البلكون. ماهذا الحظ!.. كان باب البلكون مفتوحاً فدخله بمنتهى الجرأة وأدار مفتاح الكهرباء، لم يكن يعرف أن اللصوصية سهلة إلى هذه الدرجة، ألقى نظرة حوله، فرأى أن كل شيء هنا يمكن سرقته، كانت الخزانة مليئة بالأواني الذهبية مد يده على خزانة الألبسة، فشخصت عيناه عندما فتح محفظة النقود التي سحبها من جيب الجاكيت، كانت الأوراق النقدية من فئة المائة، والخمسين ليرة، ثم فتح أحد الجوارير في غرفة النوم فكانت مملوءة بربطات الليرات الجديدة وكأنها خرجت لتوها من المطبعة، كان يرى النقود حيثما التفت، سحب مبلغ ثلاثماية ليرة فقط من محفظة النقود، وذهب إلى الطاولة وكتب على ورقة ما يلي:

سيدي المحترم

لقد دخلت منزلكم من أجل السرقة، ولم أسرق سوى المبلغ الذي أحتاج إليه وهو ثلاثماية ليرة، وصدقوني بأنني سأعيد هذا المبلغ إليكم عندما يصبح لدي نقود.

مع احترامي

ثم ترك الورقة على الطاولة، ورجع بسهولة من الطريق الذي أتى منه، معنى ذلك أنه نجا من لسان زوجته لمدة شهر، وسوف ينام مرتاحاً للمرة الأولى منذ عدة أشهر. وصل إلى منزله فوجد أن هناك نوراً ينبعث من النافذة، معنى ذلك أن زوجته قد عادت إلى البيت، سيرمي الثلاثماية ليرة في وجهها ثم يبدأ بالصراخ ويظهر لها بعض رجولته!..

أخرج مفتاح البيت من جيبه، وما أن فتح الباب، حتى صوبت إلى صدره فوهة مسدس.

ـ يدك إلى الأعلى!

ثم قال أحد اللصوص:

ـ ولك كم أنت قليل الحياء؟.. ألا تخجل من نفسك! أنت لم تترك شيئاً في بيتك، ونحن نبحث منذ ساعتين ولم نعثر على شيء يستحق السرقة.

بعد ذلك فتشوه فوجدوا معه ثلاثة ورقات جديدة من فئة المائة ليرة فأخذوها وذهبوا.

وبقي حتى شروق الشمس وهو يفكر بالكذبة التي سيلفقها لزوجته، وفي الصباح الباكر قُرع الباب فظن أنها زوجته، فتح الباب وهو يرتجف، فرأى أمامه اثنان من الشرطة، وضعوا في يده القيود، ثم رأى اللصوص اللذين سرقوا منه مبلغ الثلاثماية ليرة، فلمعت عيناه فرحاً، معنى ذلك أن الشرطة قد قبضت عليهم!..

سأله الشرطي وهو يمسك بيده ثلاث ورقات جديدة من فئة المائة ليرة.

ـ هل هذه النقود لك؟

اضطرب الرجل، فهو قد سرقها من شخص آخر، لذا فمن المفروض أن يقول (كلا ليست نقودي)، فينقذ بذلك هؤلاء المساكين، ولكن الشرطي أردف قائلاً.

ـ إن هذان اللصان هما من أصحاب السوابق، ولقد اعترفا انهما

دخلا بيتك ليلة البارحة وسرقا منك هذه الثلاثماية ليرة بالقوّة.

معنى ذلك أن هذه الثلاثماية ليرة هي من نصيبه، وأن زوجته محظوظة، فقال: نعم إنها لي.

عند ذلك سأله الشرطي.

ـ وأنت من أين أخذتها؟ امتقع لون الرجل واضطرب، وظن انهم اكتشفوا الأمر وعرفوا أنه سرقها أيضاً فقال لهم:

ـ لماذا تسألون؟

فقال له الشرطي:

ـ لأن هذه النقود مزوَّرة.

ـ انهار الرجل وهو واقف في مكانه، فقال له الشرطي:

ـ هيا تعال معنا إلى المخفر!..

○ ○ ○

١٢ ـ شرطي لديه روح الهواية

أتذكر هذه الحادثة في كل عيد أضحى!.. حدث ذلك في عام ألف وتسعمائة.. وخمسين؟ وأعتقد أنه في عام ألف وتسعمائة وأربعة وثلاثون، كان عمي مايزال على قيد الحياة، وأنا طالب في الثانوية. يسكن عمي في منزل جميل وفخم في منطقة (آرن كوي)، يدعونا دوماً إلى منزله دوماً، ولكن ما أن نصل إلى المنزل وقبل أن نستريح، يبدأ بسرد خواطره العسكرية علينا، وينفخ دماغنا، كانت الخواطر التي يسردها علينا لا تختلف عن بعضها، وكنا نضيق ذرعاً وهو يسرد قصصه، لقد بلغ عمي الثمانين من عمره، ولم يبق له من عمل في هذه الدنيا، سوى النوم، أو سرد خواطره عندما كان في الجيش. ينام عندما يتوقف عن سرد هذه الخواطر، أما في الوقت الذي لاينام فيه فكان يسرد خواطره في الجيش. لقد سمعنا تلك الخواطر التي يرويها أربعين، أو خمسين مرة، وبمجرد أن يبدأ حديثه قائلاً:

ـ حافظ حقي باشا، كان لايدع مجالاً لأي حديث آخر.

كان عمي يتحسس كثيراً وهو يحدثنا عن جيش حقي باشا، الذي كان يخدم فيه في الفرقة رقم... قائداً لسلاح المدفعية في البطارية الثانية، لدرجة يظن نفسه أنه مازال على رأس عمله في الجبهة فيقوم بخطف سيفه المعلق على الحائط ويستله من غمده ويبدأ بالصراخ.

ـ المسافة ألفين.. ثلاثة بارود يا حقي.. نارا!..

وفي أحد الأيام استولت إحدى فرق الأعداء على بطارية عمي ولكن عمي فسرّ الموضوع كما يريد فقال لنا:

ـ كنا معذورين، فلم تغفل عيوننا، ولم نذق طعم النوم طيلة أربعة أيام بلياليها. وكنت أساله.

ـ ولماذا لم تناموا طيلة أربعة أيام يا عمي؟

كان عمي برتبة جنرال عندما أحيل على التقاعد، ولكنه كان يعتبر نفسه مظلوماً لأن رفاقه تقاعدوا برتبه باشا عند التقاعد، لذلك فقد كان يقول عن نفسه باشا، وكان يصدّق ذلك. وبعد أن خرج على التقاعد وهو في سن السادسة والسبعين فرض على الجميع بأن ينادونه ياباشا. وبعد ذلك أصبح كل من يتعرف عليه يظن أنه باشا.

ـ أجابني عمي الباشا قائلاً.

ـ لقد سألتني ماذا كنا نفعل طيلة أربعة أيام بلياليها بدون نوم؟

لقد نفذت ذخيرتنا فانتظرنا وصول الإمدادات طول هذه المدة، وأخيراً غلب النعاس على جميع أفراد البطارية ومن طول الانتظار، غلب علينا النوم ولم نستيقظ إلا على أصوات ضجة، فرحنا ظناً أن الذخيرة قد وصلت، وإذا بنا نفاجأ بالأعداء وقد أحاطوا بنا من كل جانب.

فسألته بلهفة:

ـ إيه ماذا جرى بعد ذلك يا عمي الباشا؟..

ـ لقد تخلصنا منهم بعد ذلك.. كانت القوة العدوّة التي طوقتنا قد غلبها النعاس أيضاً فناموا فوراً بعد أن أسرونا وغلبنا النوم أيضاً، وبعد

أن شبعنا نوماً، نهضنا وحاصرناهم وأخذناهم أسرى، وبناء عليه فقد رُفع إلى رتبة فريق أول. يا.. لقد كانت العسكرية في أيامنا شيء صعب للغاية، وليست كاللعبة في مثل هذه الأيام!.

كان الحماس لا يوصف وبمجرد انتزاع السيف من غمده، يصرخ بأعلى صوته قائلاً:

ـ المسافة ألفين.. ثلاثة بارود يا حقي... البطارية الثانية نار.

كنا قد مللنا سماع خواطر عمي عندما كان في الجيش، فلم نعد نزوره إلا في الأعياد، وكنا نبقى في منزله ليلة واحدة ثم نعود إلى بيتنا.

في ذلك العيد قال ابن عمي الأصغر:

ـ أنا أود الذهاب معكم أيضاً، فأنا لم أشاهد عمي منذ عشر سنوات. ذهبنا سوية، وفي الطريق بدأنا نحذر ابن عمي لكي ينتبه إلى كلامه وقلنا له:

ـ انتبه جيداً يجب أن لا تقول له يا عمي فقط!.. يجب أن تقول يا عمي الباشا. لقد رفّع عمك نفسه إلى رتبة باشا، بعد إحالته على التقاعد قبل عشرين عاماً برتبة جنرال.

كانت عائلتنا مؤلفة من ثمانية أشخاص، ذهبنا جميعاً في أول أيام عيد الأضحى إلى منزل عمي الباشا، وبدأ عمي بسرد خواطره في الجيش والتي سمعناها عدة مرات، منذ لحظة وصولنا وحتى الليل عندما آوينا إلى الفراش، كان المنزل كبيراً جداً فنام كل واحد منا في غرفة.

في تلك الأيام كانت المنازل التي تحوي أجهزة هاتف في استانبول نادرة، وبيت عمي الباشا من أحد هذه المنازل النادرة أيضاً، وفي

منتصف الليل استيقظت على صوت.. كان يطرق سمعي أصواتاً تشبه أصوات اللصوص، قفزت إلى الصالون فرأيت زوجة عمي الباشا وهي تترك سماعة التليفون من يدها فسألتها:

ـ ما الأمر يا امرأة عمي؟

ـ امان. اسكت، هناك لص.. وهو يتجول في المنزل بحرية، منذ عدة ساعات، لذا أخبرت المخفر وقلت لهم أن هناك لصاً في المنزل!..

ولم تكد امرأة عمي تنهي حديثها معي، حتى سمعنا ضجة، ورأينا أحدهم ينزل على الدرج من الطابق الثاني ثم يقف أمامنا، لقد كان ابن عمي الأصغر فسألته:

ـ مابالك وماهذه الحال التي أنت عليها؟

ـ لا تسألني! ولكن أرجوك دلني بسرعة على المرحاض، فأنا لم أجد مرحاضاً واحداً في كل هذا البيت الكبير، ولا اعرف أيضاً مكان مفاتيح الكهرباء، لذلك فأنا أبحث منذ ساعتين، لم يبق باب ولم أفتحه، فتحت جميع الأبواب ولم أعثر على باب المرحاض، أين المرحاض؟

كانت امرأة عمي قد ظنت أن ابن عمي هو اللص فقالت:

ـ ايواه.. ما العمل؟ إنهم سيرسلون الشرطة من المخفر الآن!..

ـ دعينا نتصل بهم ثانية لكي لايرسلوا أحداً.

اتصلنا بالمخفر ثانية، فقال لنا رئيس المخفر:

ـ لقد أرسلنا أحد أفراد الشرطة، وهو في طريقه إليكم، لذا فيمكنكم أن تقولوا له عندما يصل إليكم بأن هناك خطأ.

ولم نكد نهي حديثنا مع رئيس المخفر حتى سمعنا صوت عواء الكلب، وتلا ذلك إطلاق عيارين ناريين، ثم سمعنا صوتاً طويلاً متواصلاً على جرس المنزل.

استيقظ الجميع على أصوات هذه الضجة ماعدا عمي الباشا، وحسنا لم يستيقظ لأنه لو استيقظ على صوت تلك العيارات النارية، فسوف يظن وهو في عز النوم أن عدواً قد داهمه فيهب لكي يمتشق سيفه ويهجم علينا مستفسراً «ماذا يجري»

كان جرس الباب لا يتوقف عن الرنين وكنا نقف جميعاً على رؤوس أصابعنا.

- من هناك؟

- اطلب إليك أن تفتحي الباب باسم القانون.

وعندما لم يصدر من قبلنا أي حركة، صرخ الرجل الذي يقف في الخارج غاضباً:

- أقول افتحوا باسم القانون، وإلا حطمت الباب.

عند ذلك بادرت بالسؤال:

- من أنتم؟

- ستتعرف عندما تفتح الباب، لاحاجة لإضاعة الوقت، أقول لكم افتحوا.

فتحنا الباب، فرأينا الشرطي أمامنا، وما أن وطئ بقدميه داخل البيت حتى صرخ بصوت عالٍ:

- ابقوا في أماكنكم... لا تتحركوا.

وبعد أن نظر إلينا ونحن مجتمعين في أماكننا، وتفحصنا فرداً فرداً قال:

ـ لقد اتصلتم بالمخفر أليس كذلك؟.. فقلت له:

ـ نعم، ولكن ذلك كان خطا، فقد حسبنا أن لصاً دخل المنزل، واتضح أنه ليس لصاً.. المعذرة.. لقد سببنا لكم إزعاجاً.

ضحك الشرطي ضحكة ذات مغزى.

ـ هي.. هي.. خطأ! أليس كذلك.. يعني لقد حدث خطا!.. لايوجد هناك لص أليس كذلك؟

قلت له وأنا اضحك أيضاً.

ـ نعم.. خطأ.. سمعنا وقع أقدام. فظننا أن هناك لصاً.. المعذرة.

فصرخ الشرطي:

ـ اخرس.. هيا اصعدوا إلى فوق، أنا أفهم أكثر منك فيما إذا كان قد دخل لص إلى هذا المنزل أم لا!..

وكمن يدخل الدجاج إلى الخم، أجبرنا على صعود الدرج، كان الرجل صارماً جداً فوضعنا جميعاً في غرفة واحدة.

ـ لقد دخل اللص، فقبضتم عليه، ثم توسل إليكم وبكى، فأشفقتم عليه وبعد ذلك أخفيتموه.. أليس كذلك؟

فقلت له:

ـ أبداً ليس الموضوع كما تقول أنت.

ـ إذن فأنتم هرّبتم اللص قبل مجيئي.

ـ ولماذا نهرّب اللص؟..

ـ إذا أخرجوه بسرعة إذا لم تكونوا قد هربتموه، فأنا لا أريد كلاماً كثيراً.

بدأت امرأة عمي الباشا بالتوسل.

ـ والله.. والله.. لايوجد لص يا ابني.. لو كان موجوداً كنا سنسلمك إياه.

ـ هي.. هي.. هذا الكلام لا يفيد شيئاً.. نحن نفهم كل شيء يا خالة.. دوماً يشفقون على اللص ويخفونه، ثم تُسرق البيوت بعد ذلك. أخرجوا اللص!

كان يشهر مسدسه وهو يتكلم فهمست والدتي في أذني قائلة:

ـ لايوجد أمامنا سوى طريقة واحدة لكي ننهي هذه الأزمة، وهي أن نقوم بتسليمك له على أساس أنك اللص، وسوف يتضح الأمر عندما تذهبون إلى المخفر، فنقول لهم أننا قمنا بذلك من أجل إنقاذ أنفسنا!..

وبدون أن أفتح فمي بكلمة قال الشرطي:

ـ بماذا تتهامسون؟ هل تخططون لتهريب اللص؟..

ـ والله، بالله، لايوجد لص.. لقد حصل خطأ باستدعائكم.. المعذرة. لقد تكلمنا ثانية مع رئيس المخفر وشرحنا له الأمر، ولكنكم كنتم قد خرجتم إلى الطريق.

ـ ما دمت قد أتيت إلى هنا، فلن أغادر هذا المنزل قبل أن أقبض على اللص.

كنا على قناعة بأن اللص لم يدخل منزلنا. فقلت له غاضباً

ـ يا أخي لايوجد هناك لص ولاهم يحزنون.

عندها مسكني من ياقة قميصي وقال:

ـ يمكن أن يكون اللص واحد منكم، هيا اخرجوا بطاقاتكم الشخصية، ثم قفل باب الغرف وبدأ يدقق في بطاقاتنا الشخصية وبعد أن تأكد من عدم وجود اللص بيننا قال:

ـ في هذه الحالة، بقي على عاتقي مسؤولية البحث عن اللص والعثور عليه.

بدأت حملة البحث عن اللص، كان الشرطي في المقدمة ونحن خلفه. وكان الشرطي يبحث بمنتهى الدقة حتى بتنا نظهر أن هناك لصاً بالفعل، وكنا نتسائل كيف سيخرج هذا اللص. كما كنا نساعده في البحث داخل المنزل.

كان الشرطي يفتش في كل مكان ويفتح جميع الخزائن والصناديق، وينظر بداخلها، كما كان يلقي نظره تحت الأسرة، وفي المراحيض، وفي خلال ساعتين قلب هذا المنزل الكبير فأصبح عاليه سافله، فكنت ترى الغسيل مع الكتب والأحذية وقد اختلطت جميعها مع بعض، وكان الشرطي لا يتوقف عن الكلام حتى حينما كان يفتش أسفل السجاد.

ـ يجب أن يتقن الإنسان عمله، ولا خير في الشخص الذي يقوم بعمله من أجل راتبه فقط، ولو كان هناك شرطي غيري الآن. فإنه سوف يصدّق كلامكم وينصرف.. أليس كذلك؟.. كنتم خدعتموه، أما أنا فلا أُخدع لماذا؟.. لأن الإنسان يجب أن يخلص لعمله وان لا يعمل من أجل الراتب فقط!.. لأن الإنسان إذا فقد روح الهواية فلا

فائدة من عمله في أي مجال كان، وكل عمله لن يساوي شيئاً.. فروح الهواية شيء مختلف. صحيح أننا جميعاً بحاجة إلى المال. ولكن عشق الوظيفة أفضل، والله.. لو أمسك هذا الحرامي.. بمجرد أن يخبروني عن سرقة فلا بد إلا وأن أقبض على الحرامي. ويعتبر في حكم المنتهي، وأنا أستطيع القبض عليه حتى ولو كان داخل جحر الفار لماذا؟.. لأن روح الهواية إذا وجدت لدى إنسان فيستطيع صنع المعجزات.. هل بقي مكاناً لم نفتش فيه؟.

سأله أحد الأولاد بعد أن ضاق ذرعاً:

ـ وهل يدخل الحرامي إلى هنا أيضاً؟

فيقول وهو يضحك بخبث ودهاء.

ـ هه. لو تعرفون كم لصاً أخرجت من مثل هذه الثقوب، ولو كان هناك شرطي غيري يقوم بالتفتيش فسوف يكتفي بالقول بأن الحرامي موجود عندكم ويذهب. أليس كذلك؟ فأنتم بعد أن أخفيتم اللص الذي دخل بيتكم لم اعد أنا مسؤولاً عنه. ولكن أنا لاأقوم بمثل هذا التصرف.

ـ يا أخي، يا سيدي، نرجوك، ونقسم بالله العظيم بأن لاجدوى من بحثك ونحن نتألم لهذا التعب الذي تبذله. لقد أخطأنا نحن عندما قلنا أن في بيتنا لص، يا ليتنا لم نفعل.

ـ حسناً فعلتم لأنكم أخبرتم عن اللص، حيث تظنون أن اللص غير موجود، ولكن اللص موجود، وسوف يظهر أمامنا فجأة، وأنا سأقبض عليه، لأنه لايمكن أن يكون هناك منزلاً، ولايكون هناك لص.. أرى هنا آثار أقدام، دعوني أرى أقدامكم.. لامكان بدون لصوص، اللصوص

KMH

موجودون في كل مكان.. يكفي أن يكون لدى الإنسان وجدانا مسلكياً ومرتبطاً روحياً بعمله لكي لا يذهب جهده هباءً!.. لم نفتش الطابق العلوي.!أليس كذلك؟ وهكذا لم يترك مكاناً في هذا المنزل الكبير ولم يقم بتفتيشه وهو لا يتوقف عن الكلام، وهذا المنزل سوف يحتاج لمدة شهر على أقل تقدير حتى يمكن إعادة ترتيبه كما كان، لم يبق مكان ولم يفتش فيه سوى الغرفة التي ينام فيها عمي الباشا.

كان الشرطي الذي لديه روح الهواية في المقدمة ونحن خلفه وفيما كنا نصعد الدرج إلى غرفة عمي الباشا فوجئنا بصراخ عمي الباشا، فقد كان يحلم بأيام العسكرية ولعله استيقظ على صوت أقدامنا. فوقف عمي الباشا على راس الدرج وهو يرتدي سرواله الطويل وفوقه ثوب النوم الذي يصل حتى ركبته، وقد امتشق سيفه وهو يهجم علينا.

ـ البطارية الثانية.. هدف.. الراقم.. ثلاثة بارود يا حقي.. نار.

كان الشرطي الذي يملك روح الهواية قد طار فوق رؤوسنا كالعصفور، وكان يقفز كل ثمانية درجات دفعة واحدة، حتى نجا بنفسه من سيف عمي الباشا ولما كنا جميعنا خلف الشرطي فقد ودعناه حتى خرج المنزل.

ظنّ عمي الباشا أننا من بطارية الأعداء، وأنهم طوقوا بطاريته. وأخيراً استطعنا إقناع الشرطي الذي لديه روح الهواية بعدم وجود لص في المنزل، لكن عمي الباشا لم يعد يصدّق بعد تلك الليلة أننا لسنا أعداء. فقد كانت روح الهواية لدى عمي الباشا أقوى من روح الهواية لدى ذلك الشرطي.

○ ○ ○

١٣ ـ الغنيمة

جاء الياس الريس السورمانلي إلى استانبول، لقضاء بعض الأعمال ونزل في فندق البحر الأسود الذي تسكن فيه الممرضات، وأنهى عمله خلال شهر، ثم اشترى لأولاده الثياب الجديدة، ولامرأته قطعة قماش لخياطة فستان، كما اشترى لجيرانه الحناء، والخرز الأزرق لمنع الإصابة بالعين، وماشاء الله مصنوعة من النحاس، وراحة حلقوم، وهدايا أخرى مختلفة، وقد وضع كل هدية في علبتها أو في الكيس المخصص لها، واصبح كل شيء على ما يرام. وقرر السفر والعودة إلى بلده على أبهى سفينة في ذلك الوقت واسمها (جول جمال). تفقد جيبه، وكان لديه في الصرة المربوطة مبلغ أربعين ليرة، فكر في قضاء ليلة ممتعة في هذه المدينة الجميلة فقد لايكون له قسمة لزيارة استانبول مرة أخرى، ذهب إلى إحدى الحانات، وشرب زجاجة، وطلب زجاجة أخرى.. خرج من الحانة وبدأ يسير في أزقة (غلط) الرطبة والضيقة، فشاهد امرأة في أحلى زينتها تقف أمام أحد البيوت وقد شمرت ثوبها حتى خصرها كاشفة عن مفاتن رجليها وسيقانها. دعته هذه المرأة للدخول، وهو يتذكر أنه دخل، ولكنه لا يتذكر ما حدث بعد ذلك. مع أن كل ماجرى على رأسه كان قد تم في هذا البيت، ولم يعد إلى وعيه إلا بعد توقيفه في النظارة، وهناك أخبروه بأنه متهم بقتل رجلين اثنين وجرح شخص ثالث، رغم أنه لم يكن يحمل خنجراً أو سكيناً على خاصرته، وبعد أن زُج الياس الريس في السجن مثُلَ أمام القاضي فسأله:

ـ اسمك؟

ـ هل تسألني عن اسمي؟.

ـ طبعاً أسألك عن اسمك.

ـ من أين لي أن أعرف إذا كنت تسأل عن اسمي أو تسأل هذا الدركي عن اسمه..

ـ لا تطل الكلام، أنا أسألك عن اسمك.

ـ سأروي لك الحكاية، وبعدها أقول لك عن اسمي، لقد أسموني في البداية شكري، وبعد ذلك جاء إمام القرية..

حدّق القاضي وقال له:

ـ تكلم وبسرعة، ما هو اسمك؟

ـ لن أطيل عليكم يا سيدي.

ـ بعد أن قرأ الشيخ الضرير الأذان في أذني. قال:

ـ دعنا من الشيخ وقل لنا عن اسمك.

ـ اسمح لي لحظة من فضلك، سأترك الشيخ.. لقد قال..

صرخ القاضي:

ـ كيف يناديك الناس؟.

ـ ينادونني بالياس الريس، ولكنك لم تترك لي مجالاً لأكمل حديثي!..

ـ من أين أنت؟

ـ لقد جاء والدي من بلدة (البازار) إلى بلدة (هوبا) لأن والدتي

كانت تعيش هناك فخطفها وذهب بها إلى (سورمان). آنذاك بدأت الدرك بمطاردته.

صرخ القاضي غاضباً:

ـ اختصر. أين مكان ولادتك؟

ـ إنني أقول لكم، ولكنكم لا تستمعون لحديثي.. لن أطيل الحديث. جاءوا إلى سورمان.

ـ يا الياس الريس يا ابني، قل لي كلمة واحدة مكان ولادتك.

ـ بكلمة واحدة!.. لقد أخذ أبي والدتي وجاء..

ـ ألا تفهم التركية أنت؟..

ـ أنا لا أتكلم لغة الكفار فأنا تركي ووالدي تركي..

ضرب القاضي بقبضة يده على الطاولة وقال له:

ـ من أي بلد أنت؟

ـ سورمان.

ـ الحمد لله. كم عمرك؟

ـ هل سألتني عن عمري ياسيدي؟.. عمري بالتمام التمام.. انتظر قليلاً (ونظر إلى السقف وبدأ يعد بأصابعه). هل تعلم يا سيدي في أي عام كثر فيه سمك السردين، في ذلك العام كانوا قد استدعوني إلى خدمة الجيش، وبعد ذلك بمدة خمسة عشر عاماً ولدت ابنتي.

ـ دعنا من هذا الكلام، وقل لنا عن عمرك.

ـ إنني أحسبه لك يا سيدي. قل لي أنت في أي عام كان سمك السردين كثيراً. لكي أقول لك كم عمري.

ـ أنا لا أعلم في أي عام كثر سمك السردين في (سورمان) قل لي ما هو مكتوب في تذكرة هويتك؟.

ـ لماذا تنظر إلي هكذا.. اسمع ما أقوله لك.

التفت القاضي إلى الكاتب وقال له:

ـ اكتب. طلب قيد نفوسه من بلاده.. الياس الريس، هل أنت متزوج؟

ـ لا أريد أن اسبب لكم وجع الرأس يا سيدي. فالكلام يجر بعضه، وعندما كنت في التاسعة عشرة..

ـ الياس أفندي. هل أنت عازب؟ أم متزوج. قل إما عازب، أو متزوج.

ـ كنت أهلاً لذلك. ولكن الزواج شيء مختلف.

لقد استغرق الحاكم أكثر من ساعة حتى استطاع التعرف على هوية الياس الريس ولم يستطع القاضي الذي غرق في عرقه أن يدخل في تفاصيل الجناية، فأجل الجلسة إلى بعد شهرين، كان الياس الريس مسروراً جداً لهذا التأجيل، وخرج من قاعة المحكمة يحيط به اثنان من الدرك.

وبعد شهرين من الجلسة الأولى مثل الياس الريس أمام المحكمة للمرة الثانية بدأ الكاتب بقراءة صورة الإدعاء. في قرية (كومدلي) التابعة لناحية (هوبا)، في الخانة رقم ٥٤ صحيفة ٢٣ و ١٥٩/٩٣، متزوج وله سبعة أولاد. أمه فاطمة، متهم بفعل القتل والجرح، وبناء على قرار التوقيف رقم ١٣٣١ وتاريخ.. وفي يوم الجمعة المصادف للثالث عشر من تشرين الأول وفي ليلة السبت أخذت إفادة المدعي

عليه واقرّ تأويلاً بالجرم. كما ثبت لدينا ذلك بعد سماعنا أقوال الشهود. وبناء على ما تقدم وبعد أن ثبت لدينا بصورة قطعية أن المتهم قد قام بهذه الجريمة البشعة.. وبناء على المادة.. من قانون العقوبات أطلب معاقبة المجرم..

استمرت قراءة الادعاء نصف ساعة. بعد ذلك سأل القاضي الياس الريس:

ـ ما ردك على هذا الادعاء؟

ـ أبداً ليس لدي ما أقوله.

ـ أليس لديك ماتقوله؟

ـ ليس لدي، اتركوني ودعوني أذهب إلى بلدي.

ـ أجبني فأنا أسألك إذا كان لديك أي اعتراض على الادعاء؟

ـ كيف سأعترض وانتم لا تستمعون لي. فكوا وثاقي لكي أستطيع الكلام..

ـ ما رأيك على ماجاء في ادعاء المدعي العام؟..

ـ من هو المدعي العام.. أنا لا أعرفه، وأنا لم آكل أو اشرب معه، إسأله إذا كان يعرفني أو زارني في بيتي وشرب القهوة عندي!

ـ الياس الريس.. اجبني على قدر سؤالي فقط، هل لك أي اعتراض على الكتابة التي قرأناها قبل قليل؟..

ـ كل هذه الأوراق المكدّسة التي قرأتها هي من أجلي؟.. لقد ظننت أنه يقرأ بعض الأدعية.

حاول القاضي شرح مضمون الادعاء للسيد الياس الريس

باللهجة التي يفهمها هو. ثم قال له بعد ذلك:

ـ هيا قل لنا كيف تمت الحادثة؟...

ـ يا سيدي طلبت من زوجتي (عدوة المعلقة). أن أخذ محصول البندق وأركب القارب واذهب إلى استانبول لكي أبيعه، فقلت لها لن أذهب فأنا لا اسمع كلام النسوان أبداً، أصرّت كثيراً على ذهابي، وزاد إصراري على عدم الذهاب. هل ماتت الرجولة؟.. هي تقول لي اذهب. وأنا أقول لها لن أذهب.. هي تقول..

عندها قاطعه القاضي وقال له غاضباً:

ـ اترك زوجتك، وتكلم عن استانبول.

ـ آه يا سيدي الحاكم. كيف أترك زوجتي؟.. إنها زوجتي منذ تسعة عشر عاماً. وبينما كنت أجادلها مسكتني من يدي..

ـ لاشأن لنا فيما حدث معك في البلد. تكلم عن الحادثة فقط.

ـ وأنا سأحدثك عنها. في ذلك العام كان محصول الذرة جيداً، وكان سمك السردين كثيراً جداً حتى وصل إلى اليابسة. فاتفقت مع ابن الشيخ خضر القبطان (ثمال)..

ـ لا تطل الحديث بالياس الريس.. لا تتكلم عن شيء لا علاقة له بالواقعة.

ـ على رأسي. أعطتني زوجتي البندق وقالت خذه واذهب إلى استانبول لتبيعه.

ـ هل هناك علاقة بين البندق والحادثة؟

ـ أنا أوضح لكم كيف تطور الحديث.. وبينما كنت أتجادل مع

زوجتي فكرت في الأمر يا سيدي، وتبين لي أنني لن أستطيع تحدّي هذه المرأة. فأخذت حقيبة ثيابي وقلت لنفسي ولك الياس الريس، اسمع كلام زوجتك فقد تجاوزت الأربعين من عمرها، فهذه هي المرة الأولى التي تصرّ فيها عليك.

عندما رأى القاضي أن لافائدة يمكن أن ترتجى من الياس الريس لم يقطع حديثه بل تركه يستمر.. فقال:

ـ لقد سببت لكم الصداع يا سيدي.. قلت لزوجتي سأذهب إلى استانبول ليس لأنك طلبت مني الذهاب. بل لأنني أنا أريد الذهاب، وانتم تعلمون يا سيدي بأن النساء لا يُسمع كلامُهُنَّ، لأنه نتيجة هذا الكلام كالبلية تقع على رأس الرجل.. الحديث يجر الحديث، وأنا لا أريد أن أطيل عليكم.

ذهبت أنا والقبطان (تمال)، وحمَّلنا البندق، وفتحنا أشرعة القارب.. فقالت لي زوجتي:

لقد تكلم الياس الريس لمدة ساعتين حتى استطاعت المحكمة أن تفهم منه أنه قد حمّل البندق في قارب القبطان (تمال). تأجلت المحكمة لمدة أربعة أشهر، كانت علائم السرور تبدو على محيا الياس الريس، كما لو أنه حصل على البراءة، مد يداه فوضعوا فيها القيود، وأحاط به إثنان من الدرك وبدأ يتهادى في مشيته في ممر المحكمة.

وبعد أربعة أشهر خرج الياس الريس لحضور الجلسة الثالثة، وبمجرد وقوفه في المكان المخصص للمتهم أخطره القاضي قائلاً:

ـ لا تطيل الكلام. تكلم عن الحادثة فقط.

فقال الياس الريس:

- حسناً يا سيدي، على رأسي، ثم بدأ بالكلام.

- أين توقفنا؟.. هه.. عند عدوة المعلقة زوجتي.

- دعنا من ذلك فقد تحدثت عن هذا الموضوع.

- بعد ذلك حملّنا البندق في قارب القبطان (تمال). كان ذلك في يوم.. دعني أتذكر.. لكي لا أكذب.. ركبنا القارب، وفتحنا الأشرعة وودعتنا زوجتي وقالت صحبتكم السلامة. وبدأنا المسير، لقد سرنا كثيراً فأخذت النشوة القبطان (تمال) فتناول آلة الكمان بيده وبدأ بترديد الأغاني الشعبية.

سفينة تغدو وسفينة تروح

يا ليتني كنت البحر الذي تعوم عليه

ويا ليتني كنت الزوج الأخير

لفتاة تزوجت عشر مرات

- الياس الريس. هنا قاعة محكمة!.

- لم أعرف يا سيدي.

- ممنوع الغناء هنا. أنا أسألك كيف تمت الواقعة؟

- وأنا سأشرح لكم ذلك، لكن مجرى الحديث.. على كل لن أطيل الكلام.

حل الظلام، فهبت عاصفة قوية، وبدأت الأمواج العاتية تتقاذف القارب والمياه تدخل من مقدمته وتخرج من مؤخرته.

- تكلم عن (سادات) يا الياس أفندي.

(كان أحد الأشخاص اللذين طعنهم الياس اسمه سادات والثاني جليل)

ـ سأتحدث عنه.. ولكن دعني اكمل حديثي.. كانت الأمواج كالجبال. وكدنا نشرف على الغرق.. سوف نغرق.

ـ حدّثنا عن السادات!.

ـ سأحدثكم عن السادات وعن جليل أيضاً.

في تلك الجلسة استطاع الياس الريس أن يصل من (هوبا) إلى (ارهاري). ونظراً لأن الوقت قد تأخر فقد تأجلت الجلسة لمدة ثلاثة أشهر أخرى.

وفي الجلسة التي تمت بعد ثلاثة أشهر. تمكن الياس الريس أن يصل بقاربه إلى (فيجه)، بعد ثلاث ساعات ونصف من مغادرته (أرهاري)، ومن (فيجة) إلى (البازار) استغرق ذلك منه جلستين كل جلسة مدتها ساعتين، واستغرق ساعتين ونصف وهو يقص على المحكمة قصة وصوله إلى (ريزا) أما المسافة التي قطعها من (ريزا) إلى (أوف) فقد استغرقت وقتاً طويلاً جداً.

كانت كل جلسة تتأجل لمدة شهرين، ثلاثة، وحتى أربعة أشهر، وعندما قص اليالس الريس على المحكمة كيف أبحر القارب من (اوف) إلى (سورمان) كان قد مرّ عليه عامان وهو في السجن.

كان الياس يروي تفاصيل الأحداث التي مرت معه بمنتهى الدقة. وكان المستمعون يملؤون قاعة المحكمة. وبين تقاسم الحديث بين القاضي والياس، وبين ضحكات المستمعين استطاع الوصول إلى (طرابزون). لا أحد كان يفهم لماذا لم يأت الياس الريس على

ذكر حادثة الجناية حتى الآن. ولماذا كان يطيل الحديث!..

كان يطيل في سرد للتفاصيل بكل ما أوتي من قوة كلما اقترب من استانبول. وفي الجلسة الثالثة عشرة للمحكمة وكان قد مر عليه ثلاثة أعوام تمكن الياس الريس من أن يبحر من (غوريلا) إلى (تيرابولو).

ـ يا سيادة الرئيس لا أريد أن أطيل عليكم، ففي أحد أيام الشتاء انطلقنا أنا والقبطان (تمال) نحو (غيراسون) ووصلناها بعد ثلاث ساعات.

لقد استغرق الحديث عن رحلته إلى (غيراسون) ثلاث جلسات وكل جلسة استغرقت ثلاث ساعات.

ـ على كل يا سيدي، بدأت تيارات الماء تتقاذف القارب ذات اليمين وذات الشمال.. ولكي لا أطيل عليكم الحديث.. فقد اتضح لنا أن تيارات الماء أعادتنا إلى الوراء فوجدنا أنفسنا في (غوريلا).

ـ لاتعد إلى الوراء على أقل تقدير.. قليل من الإنصاف.

ـ لو كان الأمر بيدي فأنا لا أريد العودة ولكن تيارات الماء هي التي أعادتنا. حان وقت الجلسة الثامنة عشرة، والياس الريس لم يقطع بعد نصف الطريق إلى استانبول. ولما رأى القاضي أن المحكمة قد طالت كثيراً وهو يريد إنهاؤها في أقرب وقت قال:

ـ الياس الريس. خلصنا وتعال إلى استنبول.

ـ عند ذلك مسك الياس الريس بإصبع سبابة يده اليمنى جفن عينه وسحبه إلى الأسفل وقال:

ـ بشت.. إنك تريد أن تأكل بعقلي خبزاً وجبناً. فهل يمكن أن اصل إلى استانبول.

وبما أن حادثة القتل قد تمت في استانبول سأله القاضي:

ـ ولماذا لا تريد الوصول إلى استانبول؟

عندها قال له الياس الريس:

ـ وهل تحسبني غنيمة أو لقمة سائغة، فكيف أصل إلى استانبول وأنت تريد أن تعلقني على المشنقة!.

○ ○ ○

١٤ ـ مساومة

إذا كنت ترغب في شراء الألبسة القديمة فعليك الذهاب إلى سوق الألبسة المستعملة. أما إذا بدأت البحث في دفاترك القديمة كصغار التجار المفلسين، عندئذ سوف تعطيني الحق في ما حدث في هذه القصة.

يخفق قلبك فرحاً ويدب فيك الأمل عندما تسمع صوت رجل ينادي في أول الشارع (نشتري ألبسة قديمة) وأنا من الناس اللذين يطيب لهم لتعامل مع هؤلاء الأشخاص في مثل هذه الأيام الصعبة.

ـ هل لديك شيء للبيع يا سيدي؟

ـ لدي معطف، هل تشتريه؟

ـ لقد انتهى الموسم، هل لديك طقم؟..

إذا أعطيتهم جاكيت، فيقولون نريد بنطلون، تعطيهم البنطلون، فيقولون لك نريد صدرية، تعطيهم الصدرية، فيقولون لك نريد قبعة، وكل ذلك من اجل أن يحطموا معنوياتك منذ اللحظة الأولى.

ونحن لكي لا يرى الجيران ملابسنا القديمة فإننا ندعو الرجل الذي يشتري الملابس القديمة إلى الداخل.

ـ لدي بنطلون هل تشتريه؟

ـ دعني أراه.

يأخذ البنطلون ويخرج من الباب لكي يعاين البنطلون على ضوء النهار.

ـ تعال إلى الداخل.

ـ يدخل ويعيد تقليب البنطلون بين يده ثم يقفز ثانية إلى الشارع.

ـ يا أخي ألا يمكنك فحص البنطلون في الداخل؟

يقف على عتبة باب الدار ونصفه في الداخل والنصف الآخر في الخارج وهو يتفحص أرجل البنطلون، وخصره..

ـ ألا يمكن أن تفحصه في الداخل؟

ـ الداخل مظلم!..

نضيء له الكهرباء، ونفتح باب الستائر، ولكن بدون فائدة، وكأنه قطع عهداً على نفسه بأن يشوّه سمعتنا في الحي كله.

كان يقطن مقابل بيتنا فتاة شابة، وكانت علاقتنا جيدة مع الجيران المجاورين لنا. وكان في أحد البيوت المجاورة لسكنه، أحد تجار السوق السوداء، وعلى يسارنا تسكن عائلة ثرثارة جداً، ولكن تاجر الألبسة المستعملة لا يفهم هذه الأمور.

إنه لازال منذ ساعة وحتى الآن يمسك البنطلون الذي يستر رجليك وأماكن العيب فيك وبشدة، وكان كلما مسك البنطلون وحضنه وبدأ بشده كنت اشعر وكأني أصبحت عارياً من خصري وحتى قدماي، وأحاول ستر مقدمتي ومؤخرتي براحتي.

ـ يا هو.. إدخل.. إفحصه في الداخل.

ـ يا أخي نحن نشتري بضاعة، ولايمكن أن نأخذها وعيوننا مغمضة قد يكون فيها ثقب أو مهترئة. دعنا نراها.

يقفز ثانية إلى الشارع ويبدأ بمعاينة مقعد البنطلون، ثم يقف مقابل نافذة الفتاة الجميلة تماماً، ويضع عينه أما الثقب وينظر من خلاله إلى الفتاة وكأنه يرصد هدفاً.

ـ أرأيت.. هذا ثقب.

ـ ثقب أو غير ثقب. ادخل وخلصنا.

دعك من موضوع الدخول، فهو لكي يثبت بأنه في البنطلون ثقباً يضع إصبعه داخل الثقب ويبدأ بتحريكها. وليس عيباً أن تكون لي عادة سيئة وهي أنني أتدغدغ حتى إذا لعب أحدهم ببنطلوني، كانت الفتاة تضحك وهي واقفة في النافذة المقابلة، فيما كنت أتصبب عرقاً بارداً وكأن أجلي قد دنا. سمع الجيران مناقشتي مع تاجر الألبسة المستعملة فتراكضوا ووقفوا أمام نوافذهم. كانت الفتاة التي تسكن مقابل بيتنا تضحك، وأولاد الجيران يضحكون وتتزاحم الرؤوس على النوافذ لتراقبنا.. اللعنة.

ـ ولك.. لقد بهدلتنا، ادخل وخلصنا؟

مسكتُ تاجر الألبسة المستعملة من ياقته وسحبته إلى الداخل وهو لا يزال يفحص رجل البنطلون وقلت له:

ـ لاداعي لأن تطيل الموضوع.. كم ستدفع.

ـ سأدفع ليرتين من اجل خاطرك، وصدقني بأنه سوف لن يبقى لي سوى عشرة قروش، ولأننا نريد أن نبيع ونشتري.. سأدفع لك ليرتين.

أطرد هذا البليد من أمامي بعد أن عانيت منه كثيراً فيأتيني تاجر ألبسة مستعملة آخر. وبعد ان يمتع الجيران كما فعل سابقه، يدفع ليرة ونصف، ويأتي ثالث وينزل المبلغ حتى ليرة واحدة، وكأنهم قد اتفقوا مع بعضهن فكانوا يكسرون السعر دوماً. وبعد قليل اسمع صوت أول تاجر ألبسة مستعملة:

ـ أشتري ملابس مستعملة.

ـ تعال. تعال.

ـ يأتي على مهله وبدلال.

ـ هيا خذه.

ـ بكم؟

ـ لماذا تسأل بكم! ألم تدفع ليرتين قبل قليل؟

ـ ليرتين؟ لقد ذهب زمانها.. لقد كان هذا من قبل.. لقد كنت مغفلاً.

ـ ماذا ستدفع الآن؟

ـ لقد هبطت الأسعار. لا أستطيع أن ادفع لك أكثر من خمسين قرشاً.

ـ ناولني الخمسين قرشاً.

ـ أعطيك كاسات أو صحون!..

ـ الله يبليك بالعمى.. هات أعطني ما تريد. فقط دعني أحصل على ثمنه.

يأخذ البنطلون ثانية ويخرج إلى الشارع، يشد رجلي البنطلون،

ثم يضع عينه في الثقب المناسب ويبدأ بالتفرج على النافذة المقابلة.

ـ هيا أدخل.

ـ لا أستطيع رؤيته في الداخل!..

أتشبث أنا برجل البنطلون، والرجل الأخرى بيد اليهودي، وفيما نحن نتجادل، يتمزق البنطلون إلى قطعتين وأرتمي أنا داخل البيت، ويتدحرج اليهودي وسط الشارع وفي يد كل منا رجل بنطلون، تعلو الضحكات في النوافذ وكأن هناك مهرجاناً في الحي.

عندها يتكلم تاجر الألبسة المستعملة وهو ملقى على الأرض.

ـ أرأيت لم يعد يساوي الآن الخمسين قرشاً. سأدفع لك خمسة وعشرين قرشاً.

ـ هيا ناولني الخمسة والعشرون قرشاً.

إذا بقينا على هذا المنوال، فسوف نعطيه البنطلون هدية، علاوة على السخرية التي تعرضنا لها.

أن تصبح فقيراً بدون إرادتك. خير من أن تتعرض لسخرية الآخرين.

«ماركو باشا» ١٩٤٦.

○ ○ ○

١٥ ـ التملق

دخل إلى قسم النشر، عدد من العاملين وهم تسعة أشخاص، وكانت المرة الأولى التي أراه فيها. وقف الجميع، وكنت آخر من وقف، وكنت لا أنوي الوقوف أبداً لأنني لم اكن أعرفه، ولكن أحد الأصدقاء نبهني قائلاً.

ـ ششت.. إنه كاظم بك.

قفزت من مكاني بمجرد سماعي لهذا الاسم، فهذا الرجل يملك حوالي عشرين إلى ثلاثين مليوناً بالإضافة إلى أنه مديرنا.

صرخ فينا جميعاً.

ـ اجلسوا..

جلسنا معاً. ماعدا شوقي فقد ظلّ واقفاً، قال له كاظم بك:

مافائدة الوقوف؟ أنا لا أحب التملّق!..

فأجابه شوقي وهو لا يزال واقفاً:

ـ على الرأس يا سيدي.. على رأسي.. سوف نجلس، معكم كل الحق ياسيدي.. واستمر واقفاً.

لو اكتفى بالوقوف لهان الأمر، ولكنه كان قد زرر جاكيته،، ووضع يده فوق الجاكيت، وأحنى هامته.

كان شوقي بك رئيس قسم التحرير، ومن البديهي أن لا يحب

كاظم بك المتملق نظراً لمركزه المالي الكبير، وهذا شيء جيد، لذلك فقد كنت انظر إلى شوقي هذا الشخص الذي تسمر مكانه، ولكنه كان لا يفهم عليّ أبداً وكان يردد دائماً كلام ناظم بك.

ـ نعم يا سيدي.. يجب أن يلتفت كل منا إلى عمله.

صرخ كاظم موجهاً كلامه إلى شوقي بك بشكل خاص.

ـ هيا اجلس.

ـ بأمرك ياسيدي، سوف أجلس، لكنه استمر بالوقوف..

ليس عيباً. قالها الرجل بمنتهى الصراحة (أنا لا أحب التملق) ولكن شوقي الذي أحنى رقبته، كان لا يتوقف عن موافقة كاظم بك، وكان يقول له بعد كل كلمة، نعم ياسيدي.

لو كان يقف بجانبي، كنت مسكته من طرف الجاكيت وصرخت فيه قائلاً.

ـ ولك اجلس.

غضب كاظم بك كثيراً وقال له:

ـ اجلس، وشوف شغلك، فأنا لا احب هذه الأمور.

ـ على رأسي ياسيدي. تحت أمركم..

ولكنه لم يجلس، ربما كان كاظم بك يريد الخروج أو أنه يريد أن يسأل أحدنا عن شيء، ولكنه كان محتاراً في منظر شوقي المتسمر في مكانه، وهو يلوي رقبته، فلم يعد يتمكن من المغادرة أو من يسأل أحدنا عن أي شيء، فقال له بمنتهى اللطف والهدوء:

ـ اجلس يا صديقي.. من فضلك.. اجلس أرجوك، لاحاجة لأن

تتعب نفسك، فقال شوقي:

ـ أمان يا سيدي. استغفر الله، أنا لا اتعب نفسي. لأنني يجب أن لا أكون مقصراً في احترام ذاتكم العلية!..

عندها ضحك كاظم بك ضحكة صفراء. تنم عن غضب.

ـ اسمك شوقي، أليس كذلك؟.

ـ نعم يا سيدي.

ـ ياسيد شوقي، أنا لا يستهويني مثل هذا الكلام الذي يقال في مراسيم التشريفات.

ـ أمان يا سيدي.. لايمكن. استغفر الله.. أرجوكم.

كان الشيطان يقول لي «هيا قم وإصفعه مرتين بظهر كفك، وأمسكه من كتفه وأجلسه رغماً عنه، لقد كان الأصدقاء في قسم النشر يقولون عن السيد شوقي أنه من أكثر الناس تملقاً، لكن لم أصدقهم، لأنه لم يكن قد مضى على وجودي في العمل سوى شهراً واحداً.

ـ يا أخي اجلس.

ـ أمان ياسيدي. اسمحوا لي بان اقف متأدباً في حضرتكم ففي ذلك راحة لي.

كان كاظم بك يتوسل إليه لكي يجلس ولكن بدون فائدة، وعندما تأكد من أن شوقي لن يجلس أدار له ظهره ونظر إلينا قائلاً.

ـ أنا لا أحب التملق هل فهمتم. لذلك لا أريد لأحد أن ينهض من مكانه عندما ادخل عليكم. وليستمر كل منكم في عمله.

وفيما كان كاظم بك يهم بالخروج وهو غاضب، قال له شوقي الذي لازال واقفاً.

ـ نعم يا سيدي على رأسي.

وفيما كنا ذاهبين لتناول طعام الغذاء قلت لصديقي كريم.

ـ ياهو.. ما أكثر تملقه من إنسان، فأنا لم أرى شبيهاً له.

ـ يقولون أنه قد وليّ زمان هذا النوع من التملق، ويسمونه تملق على الطريقة الشرقية.

ـ وهل هناك تملق شرقي، وآخر غربي؟.. التملق هو شيء من اختصاص الشرق أصلاً!..

ـ لا..لا.. هناك تملق في أوروبا أيضاً، لقد ولت موضة التملق الشرقي وأصبحت موضة قديمة. هل فهمت؟.. كل إنسان يحتاج إلى شخص لكي يتملق له، وأنت تجهل هذه الأمور لأنك حديث في العمل، هل انتبهت إلى كاظم بك، وهو يقول أنا لا أحب التملق ولا استلطفه.. ولكنني أعتقد أنه إذا وقع على متملق غربي فإن الأمر سيختلف معه كثيراً.. فالإنسان عندما يصبح غنياً يحتاج إلى شخص ليتملق له، وكاظم بك رجل مسكين رغم أنه يملك عشرين، ثلاثين مليون، ولديه عقارات، ومزارع، وسيارات، ومتزوج، وله عشيقات، إلا أنه ليس سعيداً. لأنه ليس لديه إنسان يتملق له، وهو عندما يقول أنا لا أريد التملق. فإن لسان حاله يقول «أنا لا أجد إنساناً يتملق لي كما أحب». أنا أشفق على هذا الرجل. قل ما هو عمل السكرتيرات بجانب المليونير الأمريكي، كل عملهم تملّق، ولكن تملّق غربي، فقلت له:

ـ أنت لديك إطلاع واسع على هذا الموضوع يا كريم!..

ـ أنا افهم هذا الموضوع جيداً، حتى أنني درست فلسفته، وقريباً سوف ترى أشياء كثيرة!..

لم يمض وقت طويل على هذا الحديث، حتى بدأت الأشياء الكثيرة التي تحدث عنها كريم بالظهور. كان راتبي الشهري مائتان وخمسون ليرة، وكان راتب كريم الذي بدأ عمله قبلي بثلاثة اشهر مثل راتبي، ولم يكد يمضي أسبوع على ذلك الحديث حتى اصبح راتب كريم ثلاثمائة ليرة. كان هناك من يعمل منذ سنتين أو ثلاث ولم يتجاوز راتبهم المائة وخمسين ليرة، بعد ذلك أصبح راتب كريم أربعمائة ليرة، في الوقت الذي كان راتب شوقي أربعمائة ليرة.

استمرت زيادة راتب كريم فأصبح خمسمائة ليرة وأصبح رئيساً علينا، وأصبح شوقي مساعداً له، وكان كريم لا يمر على عمله سوى مرة أو مرتين في الأسبوع. ولم يمض وقت طويل، حتى التحق كريم بعمل آخر خارج عمله قدره سبعمائة وخمسون ليرة.

كانت المسافة تزداد بعداً بيني وبين كريم كلما زاد راتبه كان أصدقاؤه القدامى يقولون له يا بيك، أما شوقي فكان يقف أمامه بمجرد أن يشاهده ويزرر جاكيته. ويبدأ الحديث معه، ياسيدي العزيز، وذاتكم العالية.

علمنا بعد ذلك أن كريم قد صحب كاظم بك في رحلة إلى أوروبا، وعلمنا أيضاً أن راتب كريم أصبح ألفي ليرة، ولم يتوقف راتبه عند هذا الحد بل أصبح بعد عودته من رحلة أوربا خمسة آلاف ليرة، لا أحد يعلم نوع العمل الذي يقوم به كريم، كانوا يقولون أنه سكرتير

كاظم بك، أو وكيله، أو معاونه، فقد كان يقوم بأعمال كاظم بك أثناء غيابه، بعد ذلك تبدّل الموضوع وأصبح كاظم بك يقوم بأعمال كريم عند غيابه!..

لم يكن كريم نشيطاً في عمله، أو حاذقاً، أو لديه مهارات خاصة، فما هو السر يا ترى؟.. لا أحد يعرف، أما أنا فقد عرفت سر ذلك، وهو التملق الغربي الذي أوصل كريم إلى ما هو عليه الآن، ومع أنني لم اكن افهم ما هو التملق الغربي، ولكنني فهمته أخيراً.

كان كاظم بك يملك خمسة أو ستة مؤسسات، وكانت أولى مؤسساته هي التي يعمل بها، وستحتفل المؤسسة بعيد ميلادها العشرين وبهذه المناسبة مُنح جميع العاملين راتباً شهرياً إكرامية وأقيمت وليمة كبرى في أحد الفنادق الفخمة ضمت أكثر من ثمانين مدعواً.

في تلك الوليمة عرفت سر نجاح كريم، في موضوع التملق الغربي. كان كاظم بك يجلس على راس الطاولة وبجانبه كريم، وكنت مع ثلاثة آخرين على يسار كريم. منتبهاً لكل كلمة يقولها كريم وكل تصرف يقوم به. في الوقت الذي أخذ فيه كاظم بك القدح وهمَّ برفعه ليشرب نخب الجميع، مسك كريم يده وقال:

ـ لا تشرب، فالمشروب يزعجك!..

فقال كاظم بيك:

ـ معليش قدح صغير..

فأجابه كريم بقسوة

ـ عندما نقول لا يجوز أن تشرب يعني لا يجوز.. على كلٍ أنت أدرى بوضعك فإذا أردت أن تشرب!.. اشرب.

KMH

لكنني لن أتدخل بعد ذلك، وأنت تعلم أنه مضر بقلبك.

وضع كاظم بك القدح الذي كان قد رفعه ليشرب نخب الجميع إلى مكانه وجلس على كرسيه.

وبعد قليل قال كاظم بك:

ـ الجو حار.. افتحوا هذه النافذة، ولم يكد يكمل كلامه حتى قفز شوقي أفندي المتملق الشرقي قبل الكرسون لكي يفتح النافذة. وهو يقول بصوت مسموع.

ـ بأمرك يا سيدي.

وفيما كان يمسك بالنافذة لكي يفتحها سمع صوت كريم وهو يقول بقسوة.

ـ اترك النافذة لا تفتحها.

والتفت إلى كاظم بك.

ـ ياهو ماذا تفعل أنت؟.. والله إن تصرفاتك كالأطفال.. أنت الآن عرقان فهل تعرف ما يحدث لك إذا فتحت النافذة؟..

فقال له كاظم:

ـ والله أنا لست متعرق.

ـ كيف تقول ذلك؟.. على كل أنا أدرى فيما إذا كنت قد تعرقت أم لا.

بعد ذلك أراد كاظم بك أن يصب بعض الماء لكي يشربه فصاح به كريم:

ـ آ. آ. آ. ماذا تفعل أنت؟.. هل جننت؟

ـ أبداً أنا أصب الماء في الكأس!..

فهز كريم رأسه إلى الشمال وإلى اليمين وقال له:

ـ الله الله إنك غير معقول أبداً.. هل سمحت أنا لك بشرب الماء. إذا كنت قد ظمئت فلماذا لم تقل لي؟..

ثم نادى على الكرسون قائلاً. من فضلك زجاجة صودا بسرعة!..

كان كريم يعارض كل تصرفات كاظم بك، وكان كاظم بك يطيع أوامر كريم ويحني رأسه كالنعجة. لكنه كان يحرن في بعض الأحيان ويتدلع كالأطفال المدللين.

ـ اسمح لي أريد ان أشرب قدحاً واحداً فقط.

ـ قلنا لايمكن. يعني لا يمكن، فأنت لا تفكر في صحتك أبداً.

وكان كريم لا يخجل من أن يتصرف هو ببعض الأمور التي كان يمانع بها قبل قليل.

ففي الوقت الذي لم يسمح بفتح النافذة، ولما شعر هو بحرارة الجو، التفت إلى كاظم بك وقال له:

ـ الجو حار!.. أليس كذلك؟.. ألم تتضايق.

فقال له كاظم بك:

ـ كلا لم أتضايق.

ـ لا إنك تضايقت أنا اعلم ذلك، وينادي الكرسون لكي يفتح النافذة.

يهب صاحبنا شوقي المتملق الشرقي، ويترك الشوكة والسكينة ويذهب نحو النافذة وهو يقول:

ـ بأمرك يا سيدي.

فيقول له كاظم بك:

ـ يا هو لقد قلت لك أكثر من مرة بأنني لا احب التملق. دع الكرسون يفتح النافذة فيرد شوقي.

ـ بأمرك ياسيدي.. على رأسي. سأجلس يا سيدي.. لا تغضبوا..

بعد ذلك يستأذن كاظم بك لكي يدخن سيكارة.

ـ هل أستطيع أن أدخن سيكارة؟

ـ واحدة فقط.. ولن اسمح لك بسيكارة أخرى. فهذه هي السيكارة الرابعة التي تدخنها هذا اليوم!..

كانت عيوني وأذاني مشدودة إليهم، بعد قليل قال كريم:

ـ يا هو.. لقد قلت لك أكثر من مرة لا تلبس هذه الطقم البني السبور في الدعوات الرسمية.. لا إله إلا الله.. يا أخي لقد نبت الشعر على لساني.. كم أنت قليل الذوق.. إذا تركتك دقيقة لوحدك، فإنك تتصرف بأشياء غير مناسبة.

نظرت إلى كاظم بك ذلك المليونير الكبير كيف يتصرف كالطفل الدلوع أمام كريم.

ـ أمان لقد نسيت..

بعد ذلك يلتفت كريم ويقول.

ـ والله إنكم لاتعرفونه إنه رجل كالطفل!..

يتدخل شوقي المتملق الشرقي.

ـ أمان ياسيدي.. استغفر الله.فيقول له كاظم بك مقرّعاً.

ـ اسكت أنت. كم أنت إنسان متملّق.. نعم أنا كالطفل ولولا كريم كنت قد مرضت ومت من زمن طويل!.

وبعد قليل نظر كريم إلى ساعته وقال:

ـ هيا بنا ننصرف، لقد حان وقت نومك، هيا انهض.

فقال كاظم بك وقد أحنى رقبته:

ـ دعنا نجلس بعض الوقت!..

ـ لايمكن الساعة الآن التاسعة والنصف، ونحتاج لمدة نصف ساعة أخرى حتى نصل إلى البيت، لقد تأخرنا ويجب أن تكون الآن في فراشك... هيا انهض.

وفيما كان كاظم بك يهم بالنهوض وضع كريم يده على القدح فمسكت يده وقلت له.

ـ ماذا تفعل أنت بحق الإله، هذا هو القدح الخامس، أنت لاتفكر في صحتك أبداً. اترك من يدك.

كنت اكلم كريم بمنتهى القسوة فقال لي كريم متوسلاً:

ـ معليش.. دعني أشرب هذا القدح.

ـ يا لله سأسمح لك هذه المرة، ولكن لن أسمح لك بعد ذلك.

فوضع كريم يده على كتفي وانزوينا في أحد الأركان وقال لي:

ـ برافو عليك.. لقد فهمت بسرعة الفرق بين التملق الشرقي والتملق الغربي. على كل لازال أمامنا دروس كثيرة يجب أن نتعلمها من الغرب، فنحن حتى التملق لا نعرفه.. كم ليرة راتبك الشهري.

ـ مائتان وخمسون ليرة.

- سأجعل راتبك خمسمائة ليرة. وغداً تستطيع أن تستلم مكان شوقي ويصبح هو معاوناً لك.

كان شوقي قد ركض نحو الباب وهو يودع كاظم بك ويتمسح به ويقول:

- أطال الله عمرك يا سيدي، وليحفظكم ويسلمكم من كل مكروه.. لقد أسعدتمونا هذه الليلة بدعوتكم الكريمة.

صحت به قائلاً:

- هيا ابتعد من هنا أيها المتملق.. ابتعد، لقد بهدلت التملّق.. ابتعد لا رأتك عيني.

○ ○ ○

١٦ ـ أنا مدين لك بسعادتي

لاتسألني.. لقد تعرفت يا عزيزي على سيدة!..

ـ هل هي جميلة جداً؟..

ـ ماذا تقول أنت.. انظر هذه هي صورتها.

ـ إنها جميلة حقاً!.. حافظ عليها.

ـ طبعاً سأحافظ عليها، ولن أفرط بها أبداً.. وأنا حريص عليها..

ـ وهل تهتم بك؟

ـ على قدر الإمكان.

ـ سأعمل جهدي.

* * *

ـ ماهي الأخبار؟ شوفي، مافي!.

ـ الحمد لله.. لقد قلت لك البارحة أنني تعرفت على سيدة.

ـ إيه..

ـ لقد اشتعلت النار في داخلي.. أحبها لدرجة الجنون.

ـ وهي.. هل تحبك؟..

ـ لا ادري.

ـ يجب أن تحبك هي أيضاً، يجب أن تتعلق بك.

ـ كيف سأجعلها تحبني؟..

ـ أنت تعرف أن لدي تجارب كثيرة. اشتري لها هدية.. النساء يحبون الزهور. القرنفل على وجه الخصوص. ويفضلون اللون الحمر. بعد ذلك ابدأ بالهدايا الغالية الثمن.. وقل لها بين الحين والآخر أنت إنسانة ذكية فالنساء يسرُّهنَّ المديح.

سأفعل كل ما تقوله لي.

* * *

ـ آه يا عزيزي.. لا ادري كيف سأشكرك؟

ـ ماذا جرى؟

ـ يا أخي إنك خبير حتى في روح المرأة.. لقد نفذت وصفتك وبدأت المرأة تهتم بي، قل لي بربك ماذا يجب أن أفعل أيضاً؟..

ـ اذهبوا إلى السينما، ولكن انتبه يجب أن لا يكون الفيلم إباحياً أو دراميا خذها إلى فيلم كوميدي أو فيلم موسيقي، وبمجرد خروجكم من السينما اذهبوا إلى (كافتريا) واطلب لها بوظة بالفانيليا يجب أن تكون بالفانيليا حتماً، ثم لا تنسى أن تضع في جيبك بعض حبات الشوكلاته لكي تكرّمها بين الحين والآخر.

ـ سأفعل كل ما تقوله، فأنا أكاد أُجَن بسبب هذه المرأة.

* * *

ـ ذهبنا البارحة إلى السينما، وفُتنت بي عندما قدمت لها حبات الشُّكولاته ثم ذهبنا بعد خروجنا من السينما إلى (الكافتريا)، وطلبت لها بوظه بالفانيليا فقالت لي: «إنك إنسان على ذوق رفيع». ما رأيك أن أذهب معها هذا الأسبوع في نزهة.. قل لي إلى أين أريد الذهاب؟..

ـ أنا أرى أن تذهبوا إلى جزيرة الأميرات، وهناك يمكنك القيام بجولة على ظهر الحمار.. أو الذهاب إلى الشاطئ، ثم لابد وان تذهبوا بعد ذلك إلى الرقص ولا تدعها للرقص إذا لم تكن الرقصة (فالس).

ـ آه يا ربي، لو أتمكن من تملك تلك المرأة.

ـ يمكنك امتلاكها، إذا فعلت ما أقوله لك.

ـ والله لا اعرف كيف أشكرك!..

ـ استغفر الله، أنا أقول لك عن تجاربي لا أكثر ولا اقل.

* * *

ـ كيف الحال.. هل ذهبتم الأسبوع الماضي في نزهة؟..

ـ لقد ذهبنا وأمضينا وقتاً ممتعاً، ولكنني لا أستطيع التقرب من هذه المرأة.

ـ لماذا؟

ـ تقول أنها متزوجة، لذلك فكل لقاءاتنا تقتصر على التجوال فقط.

ـ وهي هل تحب زوجها؟..

ـ كلا يا عزيزي... فزوجها غليظ كالحمار. مغفل، ولايفهم روح النساء أبداً.

ـ مسكينة هذه المرأة، لماذا لا تنفصل إذن عن هذا الرجل؟

ـ آه يا صديقي أنا لا أدري ماذا افعل فهي تقول لي «أنا مستعدة للانفصال عن زوجي اليوم، إذا استطعت الوثوق بك».

ـ لا تتركها ـ تابعها.

* * *

ـ ماذا جرى؟ هل من تطورات جديدة.

ـ لا تسأل. إنها خجولة جداً. لم أتمكن من تقبيلها بعد، ولكنني اشعر بأنها تحبني.

ـ إذن يجب أن تستمر في تقديم الهدايا، اشتر لها بعض العطور مثلاً.. اشتر عطر (سكاندال) على وجه الخصوص.. ومن ثم اشتر لها قطعة قماش. معظم النساء يفضلن اللون الأزرق.. أزرق هاواي.

ـ ماذا لو عرف زوجها؟

ـ من أين له أن يعرف؟.. ألم تقل لك تلك المرأة أن زوجها مغفل.. إذا كنت تريد فيمكن أن أختار أنا القماش.

ـ حسناً. سأشتري هذه الهدايا فوراً.

* * *

ـ كيف تسير الأمور؟..

ـ إنها تسير على ما يرام.. عندما قدمت لها العطر، قالت هذا عطري المفضل، كما أنها أعجبت بلون القماش، ولكننا يا أخي كتلاميذ المدارس.. كيف سأحصل على هذه السيدة.

ـ اقرأ لها مقتطفات من أشعار يحيى كمال، وقل لها طلقي زوجك لكي نتزوج.

* * *

ـ أين أنت لم أرك منذ مدة طويلة!.

لقد كنت مشغولاً، فلم استطع المجيء. لقد افترقت تلك المرأة عن زوجها.

ـ هل ستتزوجون؟

ـ طبعاً.

ـ أمان.. لا تضع الوقت، فلا أحد يعلم ماذا يمكن أن يحصل!..

* * *

ـ لقد تزوجنا البارحة.. لا أدري كيف سأشكرك، لقد تزوجنا بفضلك أنا مدين لك بسعادتي.

ـ أنا من يجب أن يشكرك يا صديقي، فأنا أيضاً مدين لك بسعادتي، فأنا بفضلك قد تخلصت من زوجتي.

ـ ....!!

ooo

١٧ ـ المفتاح

قال إبراهيم:

ـ دعنا ندخل من هذا الباب.

ـ لندخل ولكنهم سيطردوننا بعد ذلك ونحن بدون سراويل..

ـ هل أنت طفل صغير!.. نحن كالثعالب لم يتمكنوا من اصطيادنا ووضعنا في قفص!..

ـ هناك بعض الأمور يمكن أن يشعر بها الإنسان قبل حدوثها، لذلك لم اكن مطمئناً!..

نزلنا طابقين إلى الأسفل ووقفنا أمام باب عليه مصباحين ملونيني، دخلنا، وجلسنا حول طاولة، وبدأ عزف الموسيقى، وكما يهجم المتفرجون على حكم المباراة في نهايتها ليضربوه، هجم الرجال على النساء، جاء النادل.

ـ اثنان من الفودكا..

قالت لنا إحدى النساء والسيكارة في فمها، وكانت تجلس بجانبنا:

ـ عفواً هل لديكم نار؟

أنا أعرف أنها ستأتي فوراً إذا أعطيتها ناراً، وسيكون دمارنا مضموناً، لذلك التفت إلى الطرف الآخر، فأخرج إبراهيم ولاعته.

ـ أشكرك يا سيدي.

ـ استغفر الله.

نظرت إلى إبراهيم وقلت له.

ـ اختصر!..

إبراهيم، إنسان أنفق نقوداً كثيرة في مثل هذه الأماكن، مع أنه ليس غبياً، أما أنا ولا أقول ذلك مديحاً لا أعرف شيئاً عن فتيات الملاهي منذ أيام الفتيات المجريات.

قال إبراهيم:

ـ هل ستنطلي علينا مثل هذه الخدعة؟

ـ طبعاً.

سحبت المرأة نفساً عميقاً ثم قالت:

ـ الوحدة شيء صعب، أليس كذلك؟

فقال لها إبراهيم:

ـ الوجوه تخص الذات الإلهية فقط يا سيدتي. هكذا يقولون.

لقد نسيت أن أقول لكم أن هذا المكان لا يشبه الملاهي العادية التي تشرب فيها قدح الكوكتيل بليرتين ونصف وتبدّل الفتاة التي تشرب معها، ثم تشرب وتبدّل بنات وأنت تقفز حتى الساعة الثالثة صباحاً.. الأمر هنا مختلف ففتيات (الأنكاجية) في هذا المكان لا يقبلن بأقل من مائة ليرة في الليلة، وإلا فإنهن يعتبرن أنفسهن قد فرّطن في شرف المهنة، ويشعرن بالانزعاج.

بعد ذلك قالت المرأة الجالسة على الطاولة بجانبنا لإبراهيم:

ـ أريد أن اسرّ لك بشيء في أذنك!..

وعندما قرّب إبراهيم رأسه نحوها، قلت في نفسي.

ـ تمام.. لقد انتهى الموضوع وخرج إبراهيم من يدنا، كان علي أن اصمد ولا أنقاد مثله. مسك إبراهيم المرأة من ذراعها وذهبا إلى البار الأميركي وبقيت بمفردي على الطاولة، ولكي لا تصادف نظراتي عيون الفتيات، كنت أرفع رأسي وأنظر إلى السقف!..

ـ لقد تعرفت عليك في أحد الأماكن على الأغلب.

أشحت بنظري عن السقف ونظرت.. كان صوت امرأة ذات نظرات حزينة، وأسنان تلمع كحبات اللؤلؤ وشفتان مغريتان فيهما دعوة.. فقلت لها.

ـ لا أعتقد ذلك.

ـ هل أستطيع أن آتي إلى طاولتك؟

ـ إذا لم يكن لديكِ مكاناً آخر للجلوس!.. تفضلي.

جلست المرأة على الكرسي بجانبي.. ليس عيباً فلكل إنسان منا بعض العادات السيئة. وكان من عاداتي السيئة أنني لا احتمل النساء اللواتي ينظرن إليك نظرات غامضة، وترى اللعاب على شفاههن، ولا تفهم إذا كنّ يضحكن أو يبكين، وصوتهن أشبه بصوت الرجال. مثل هؤلاء النسوة يجعلونني اشعر بالندم لمعرفتهن.

ـ اسمي أليس.

ـ شكراً أنا اسمي حسن.

ـ تشرفنا.

في هذه الأثناء حضر الكرسون فسبقتني هي بالكلام وقالت له:

ـ لا نريد شيئاً.. لاداعي لأي شيء.

الله. الله. هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها فتاة بار ذات نفس عفيفة لذلك بادرت بسؤالها:

ـ لماذا لا تشربين؟.

ـ أشكرك. هل تعلم بأنني لن أتعود على هذا الجو أبداً كما أن رأسي لا يحتمل المشروب.

ـ يا....

ـ إن مزاجي الوحيد هو أن أجد إنساناً يستطيع أن يفهم همومي لكي أبقى معه بمفردي.

بعد ذلك بدأت بسرد قصتها، كان والدها أرمني، وأمها يونانية، وهي تركية جاءت إلى هذه الدنيا نتيجة مغامرة عاطفية، وكان لها عشيق يشبهني تماماً. تركها وحيدة في هذه الحياة ورحل.. لذلك أتت إلى جانبي.

ـ أنا لست كباقي فتيات البار أشعر بالاشمئزاز من هذا الجو.

كانت على وشك البكاء وهي تتحدث إليّ.. هل يوجد على وجه الدنيا مثل هذه المرأة؟. إنها المرأة التي كنت أبحث عنها طوال حياتي، لذلك قلت لها بإصرار:

ـ أرجوكِ.. دعينا نشرب شيئاً.

ـ سوف نشرب، إذا كنتَ تقبل دعوتي!..

نجحت فعلاً.. لقد تعلقت هذه المرأة بي على الأغلب.. لم لا.. أليس لها قلب؟

كنت أتفقد نفسي فأجد أنني لا املك شكل العشاق. صحبت أليس إلى البار الأميركي، كان هناك إبراهيم مع قنبلته الشقراء وقد تعانقا وأصبحا كأنهما شخص واحد.

ماذا تشربين؟

ـ كوكتيل.

ثم قالت:

ـ أنا لم أر في حياتي عيوناً أجمل من عينيك!..

يا أخي أليس هذه صاحبة ذوق رفيع. لقد تعلقت سابقاً بامرأة وكانت تقول لي نفس الكلام.

ـ أنا لا أستطيع أن احتمل النظر إلى عينيكَ.

ـ أيها (النادل) أعطنا كوكتيلاً آخر.

ـ لقد فُتنتُ بعيونكَ.

ـ اعطنا جن!..

ـ والله سأقلع هذه العيون الجميلة إذا نظرتَ إلى امرأة سواي.

ـ ياعزيزتي أليس... أسأل الله أن لا يصيبني بالعمى قبل أن انظر إلى سواك..

كرسون أعطنا قدحين من الويسكي.

نظرت إلى إبراهيم، وكانت عيونه غافية فأيقنت أن المرأة قد تمكنت منه..

تابعت أليس كلامها فقالت:

ـ لا أريد أن تفارق عيوني عيونك أبداً..

ـ لن تفارق يا حبيبتي.

ـ أرجو من الله أن لا يفرقنا عن بعض!..

عيوني أيضاً أصابها النعاس والاحمرار، ورغم ذلك فقد أُعجبت بنفسي عندما نظرت إلى المرآة.

ـ كرسون! ماذا تشربين يا حبيبتي أليس؟ (جن).. نعم أعطنا (جن) في هذه الأثناء أخرجت أليس مفتاحاً من حقيبة يدها. وقالت لي:

ـ تفضل يا حياتي، هذا مفتاح شقتي، سأنتظرك في الساعة الرابعة وعنواني هو محلة (...)، شارع (...) رقم ١٤ عمارة الشرف، الطابق الثاني. ثم أردفت قائلة إنني أغار عليك من النساء الموجودات في هذا المكان!.. يا لها من امرأة ذات مشاعر عالية.

ـ الحساب يا كرسون.

وضع الكرسون الحساب أمامي فبدأت أتلوى، كان الحساب ٢٨٥ ليرة بحثت عن إبراهيم فلم أره!..

ـ عزيزتي أليس. أنا لا املك سوى مائة وسبعون ليرة والحساب ٢٨٥ ليرة ما العمل؟

تغير لونها وقالت:

ـ لماذا شربنا كل هذه الكمية، هؤلاء ليس لديهم ذرة من الوجدان، ولايمكن أن يتركونا بدون أن ندفع. بالنسبة لي والله ليس معي سوى خمسة عشر ليرة. فكرت في الأمر وقلت لها:

ـ لا أريد الإهانة، خذي ساعتي هذه. قد اشتريتها بثلاثماية

وعشرين ليرة بالإضافة إلى أن فيها ثمانية عشر حجراً.

ـ سوف لن يأخذوها منك بأكثر من مائة ليرة!..

ـ لدي قلم حبر مذهب اشتريته بمائة ليرة.

ـ هذا غير ممكن.

نزعت أزرار كم القميص المذهبة أيضاً، جمعت أليس الأغراض وأخذتها إلى صاحب البار.

ثم عادت بعد خمسة عشر دقيقة وقالت لي:

ـ بقي عليك خمسين ليرة. سأدفعهم أنا.

ـ أشكرك فأنت تملكين قلباً من ذهب، وأنا سأدفع لك غداً بقية الحساب.

ـ إنني بانتظارك هذه الليلة.. يجب أن تأتي، آه من عيونك..

خرجت من الملهى، وبدأت أتجول وحيداً في الشوارع حتى الساعة الرابعة.. والمفتاح بيدي وأنا ابحث عن الشارع (...).أفتش في الأزقة والحارات ولكن بدون فائدة، وفي هذه الأثناء صادفت صديقي مجيد فسألته:

ـ ماذا تفعل هنا يا مجيد؟ فأجابني:

ـ لقد ذهبت الليلة إلى البار، وصادفت سيدة، والله لو رأيتها فلن تقول أنها فتاة بارات، لقد أعطتني مفتاح بيتها، وسوف تأتي في الساعة الرابعة!..

ـ ماهو عنوانها؟..

فقال لي نفس العنوان الذي كنت أفتش عنه.

ـ ما اسمها؟

ـ أليس.

ـ وهل دفعت نقوداً كثيرة في البار؟.

ـ إنها ليست كباقي فتيات البار، لقد أرغمتها أنا على تناول المشروب، لقد كان حسابي أربعمائة ليرة.. صحة على قلبها.

كان يمر بجانبنا أحد الأشخاص فجاء إلينا وسألنا.

ـ من فضلكم أين الرقم ١٤، عمارة الشرف؟..

قلت له بعد أن أخرجت المفتاح من جيبي. هذا هو مفتاح الشقة رقم ١٤.

إذا كنتم ترغبون فبإمكانكم القيام بجولة بعد منتصف الليل في الأزقة والحارات المتفرعة عن الشارع الرئيسي في العنوان المزعوم، وسوف تجدون ما لايقل عن خمسة عشر أو عشرين شخصاً بأيديهم مفاتيح الشقة رقم ١٤ في عمارة الشرف، وهم يبحثون عن العنوان.

ooo

١٨ ـ فتاة تهرب في يوم زفافها

آمال فتاة في السادسة عشر من عمرها، هربت من بيت أهلها في صباح يوم الزفاف، فتشوا عنها في كل مكان، الأصدقاء، الأهل الجوار، وسألوا في جميع الأماكن التي يمكن أن تذهب إليها فلم يعثروا لها على اثر.

وقف الزوج المرشح أمام بيت أهلها وبدأ يصرخ قائلاً:

ـ ولك هل تظنون أنني مغفل هيا أخرجوا الفتاة، فأنتم لا تستطيعون خداعي. من باع شيئاً يجب أن لا يسترده... لقد ظهرتم على حقيقتكم.. أنتم تتاجرون بابنتكم فتعرضوها على أولاد الناس، ثم تنزعون ريشهم كالعصافير أليس كذلك؟..

ردّت عليه والدة آمال.

ـ أمان يا سيد سلمان لاتقف أمام باب الدار وتصرخ هكذا... تفضل إلى الداخل لكي نتفاهم.. يستمر العريس الذي يكبر والد آمال بأربع أو خمس سنوات بالعناد والصراخ.

ـ نحن لم نأت إلى هذه الدنيا لكي تسرقونا.. ولك أنا رجل شريف، لقد صرفت ملء كفي مالاً.. لقد دمرتموني.. كنت أستطيع الزواج بثمانية نساء بهذا المال الذي صرفته على ابنتكم، ولكن قلت بأنه لا يهم ما صرفته مادمت ستتزوج من امرأة مغمضة.ملأت الدموع عيني والدة آمال فقالت وهي تتوسل إليه:

ـ أرجوك يا سليمان افندي، تفضل إلى الداخل وقل ما تريد. لكن سليمان الذي كان يعمل في حياكة النسيج رفض الدخول ولم يتوقف عن الصراخ.

ـ لم تلده أمه بعد، من يحاول خداعي.. أنا سأفعل..

تجمع حوله الأهل والجيران فقال لهم سليمان الحايك:

ـ لن أذهب قبل أن أستعيد ما صرفته من أموال وما قدمته من هدايا.

عندها قال له والد آمال:

ـ من المؤكد أننا سندفع لك كل شيء يا سليمان أفندي.. وأنا لن أزوج ابنتي لأحد أحسن منك... ونحن لا نلعق لعابنا.. ولكن هناك لقيط مولود بدون بسملة قد لطّخ سمعتنا.

وأضافت أم آمال قائلة:

ـ أنت لم تقصر في شيء، لقد فعلت كل ما قلناه لك، طلبنا منك غطاء رأس، فاشتريت لها، طلبنا منك حذاء نسائي فاشتريت لها حذاءين.

عندها قال سليمان الحايك:

ـ وأي حذاء.. ياترى هل هناك في سلالتها من رأى مثل ذلك الحذاء النسائي.. إن شاء الله لن أغادر هذا المكان بصحة وعافية، فارغاً مثل علبة السكاير وقال: إن شاء الله اعدم هذه النعمة.. لقد دفعت ثمن هذا الحذاء أجرة أسبوع كامل من عرقي وجهدي، لأن الرجل عندما ينوي الزواج لا يريد أن تكون عيون زوجته على الخارج!.. أليس

كذلك.. لذا يجب أن تعيدوا لي جميع الأغراض التي اشتريتها لابنتكم.

ـ قال والد آمال: طبعاً سنعيدها.. سنعيدها كلها.

ثم قال لزوجته:

ـ هيا أحضري إلى هنا جميع ما جاء به سليمان أفندي لقليلة الشرف ابنتك.

جلبت والدة آمال جميع الأغراض ووضعتها على الأرض، بدأ سليمان الحايك بتدقيق الأغراض وإحصائها.

ـ هناك زوج (حذاء راحة) بكعب عال.. من النوع الممتاز.. لقد تجولت في السوق مرتين حتى اشتريته.

قالت والدة آمال وهي تدعو على ابنتها:

ـ إن شاء الله تبلى في نظرها.

ـ يا سيدتي هناك ثلاثة أمتار قماش.. ما اسم ذلك القماش؟.. لا مثيل لها في العالم. لقد تدمرت.. لقد انتهيت. ماهذه الجرابات إنها مستعملة أنا لا اقبل بها.

قالت الأم:

ـ والله لم تلبسها آمال سوى مرة واحدة!..

ـ ليكن المهم البضاعة المستعملة لا تردّ.. يجب أن تدفعوا قيمتها!.. ثمانية ليرات ونصف. إنها من النايلون الخالص، وإذا لم تصدقوا فأنا أقول لكم عن المحل الذي اشتريتها منه اذهبوا إليه واسألوه. منشفة واحدة.. سروال عدد اثنان.. وهذه السراويل لن آخذها أيضاً. إنها

مستعملة، وكأنها من مال أبيها.. كيف سأقدم هذه السراويل المستعملة إلى المرأة التي سأتزوجها.. غطاء الرأس بحاجة إلى كوي.. ولكن معليش.

وبينما كان سليمان الحايك يتفقد أغراضه كان الجيران يتكلمون عن آمال وكيف فرّطت بمثل هذا الزوج!..

ـ لقد اشتريت لها قرطاً بليرتين ونصف.. لم أجده!.. وبعد أن تفقد جميع الأغراض وتأكد من أنها كاملة. بدأ بإحصاء الأموال التي أنفقها على آمال.

لقد أخذتها مرة إلى بائع المهلبية.. وإذا سألتني ما ضرورة ذلك؟ فأقول لك لأنني لا أريد أن أحرمها من أي شيء، لأنك إذا لم تشبع المرأة فإنها سوف تنظر إلى الخارج.. وقد كانت تطلب مني كل ما تشتهيه نفسها، حتى أ،ني اشتريت لها في أحد المرات قطايف بالقشطة.. لقد أفلستني هذه الفتاة.. اصطحبتها ثلاث مرات إلى السينما، لكي ترى الدنيا، كما ركبت معها في سيارة سيرفيس.. آه كم أنا مغفل.. لقد دمرتني.. أنا لاأعرف، أريد أموالي التي صرفتها عليها، هذه الأموال تكفي لشراء عمارة.

فقال له والد آمال:

ـ معك حق يا سليمان في كل ما تقوله يا أخي.

ـ دعني أجمع ما صرفته.. آه لم يبق لدي عقل.. هه.. لقد أخذتها مرة إلى إحدى الحفلات العائلية، ودفعت في ذلك اليوم عشر ليرات.. هل يمكن أن أقابل بمثل هذا الفعل؟ هل يمكن؟..

ثم التفت إلى والد آمال وقاله له:

ـ أتذكر لقد جلبت معي في أحد الأيام زجاجة كحول.. وشربنا وأكلنا يومها سمك (البلموت) مع البندورة. كل ذلك لم أدخله في الحساب، بسبب غرق المركب. فلتكن هذه الوجبة على حسابي.

وقد تبيّن أن مجموع ما صرفه سليمان الحايك على آمال بلغ مجموعه ٢١٨ ليرة. فقال والد آمال:

ـ سوف نسدد لك هذا المبلغ بالتقسيط.

فأجاب سليمان.

ـ أنا لا أقبل، غداً سأذهب إلى المحكمة وأقول بأنكم سرقتموني وادعي عليكم بجرم احتيال لكي تزوجوني ابنتكم، ونتفتم ريشي كالعصفور، وسأتقدم بعد ذلك بدعوى رد اعتبار لشرفي ومعنوياتي.. لقد لطختم سمعتي!..

في هذه الأثناء وقفت أمام ذلك البيت المتواضع سيارة، نزلت منها آمال وهي في حالة مختلفة عما يعرفها الجميع، لقد تغيرت خلال يومين، وأصبحت شيئاً آخر، كانت ترتدي ثوباً حريرياً عارياً، وقد امتلأ معصمها بالأساور الذهبية، أما شعرها فقد كان ذهبياً مسدلاً، وكم كانت دهشة الأم والأب وسليمان الحايك كبيرة عندما رأوها في هذه الحالة، فتسمر سليمان الحايك في مكانه وبقي فمه مفتوحاً، أما أمها التي كانت تقول بأنها ستقتلع شعرها، ووالدها الذي كان ينوي قتلها، قد تجمدوا في أماكنهم.. وبدأ الجيران يتهامسون قائلين.

ـ لعلها أصبحت فنانة!..

وفيما كانت آمال تدخل إلى البيت سمعت كلام سليمان الحايك.

KMH

ـ لقد أكلتم أموالي. لقد صرفت على ابنتكم ملء كفي من المال، أريد أموالي ٢١٨ ليرة..

التفتت آمال وسألت أمها.

ـ ماذا يريد هذا الرجل؟

ـ إنه يريد أمواله.

ـ اية أموال؟

ـ لقد أخذك إلى بائع المهلبية.. واشترى لك جراباً.

عندها قال سليمان الحايك:

ـ لا.لا. من الذي يتكلم عن النقود.. أنا إنسان أصيل.. وهذا الكلام عيب. فُلّة أكلت الملايين فألف صحة وعافية على قلبها.

مالت آمال برأسها إلى الوراء ورفعت أحد حواجبها وقالت:

ـ أنا لم أتكلم حتى الآن، اسمع ما أقوله. أنا الآن أعمل، ولايمكن أن أتزوجك ولوطبقت السماء على الأرض!..

ثم أخرجت من حقيبتها الجلدية الثمينة المعلقة على كتفها ثلاث ورقات من فئة المائة ليرة والقت بها أمام سليمان الحايك ثم قالت له:

ـ خذ هذه النقود وانظر إليها جيداً لكي تشبع عينيك منها، وليكن بعلمك أن المعلم الذي أعمل معه يدفع أكثر من ٢١٨ ليرة إكرامية لنادل الفندق هل فهمت؟.

ثم التفتت آمال إلى الوراء، وأدارت رأسها بغضب ونظرت من فوق كتفها بنظرة ازدراء إلى سليمان الحايك، وخرجت بسرعة

وأغلقت الباب خلفها. ثم ركبت السيارة التي كانت تنتظرها وقالت للسائق:

ـ هيا بنا.. اسحب إلى (بي أوغلو)..

التفت سليمان الحايك إلى والدة آمال وقال لها:

ـ كنت قد اشتريت لها زجاجة كولونيا.. أعطوها إياها... أنا ذاهب.

○ ○ ○

١٩ ـ لا أثر للسفينة «نصر»

دخل الشاب إلى غرفتنا وبدأ حديثه بأسلوب راق جداً.

ـ إنني أدعو ذاتكم العالية إلى نزهة بحرية في البوسفور تقوم بتنظيمها، (جمعية حماية شجرة الآكاسيا من الحشرات).

لقد أعجبت قبل كل شيء بكلمة ذاتكم العالية، معنى ذلك أنهم اعتبروني إنساناً وجاءوا لدعوتي. فقلت له.

ـ شكراً جزيلاً، ما هو موعد النزهة؟..

ـ إنه مكتوب.. وترك بطاقة الدعوة فوق الطاولة، مسكت البطاقة، وفتحتها، كان مكتوباً عليها ما يلي:

ندعوكم إلى النزهة البحرية في البوسفور والتي تم ترتيبها برعاية السيد والي بك، رئيس فرع جمعية حماية شجرة الأكاسيا من الحشرات، في منطقة (يوكسك كالدريم) لصالح من لم يبلغوا الثامنة عشر حتى تاريخه، هذا ونرجو تشريفنا بصحبة زوجاتكم وشكراً.

دعوة لشخصين: القيمة ١٥ ليرة.

دهشت كثيراً عندما شاهدت كلمة القيمة ١٥ ليرة المسجلة أسفل بطاقة الدعوة وقلت في نفسي، هل أن هذا الشاب يبيع بطاقات الدعوة، أم أنني أتوهم ذلك!.. على أية حال فالشباب يرغبون في أن اكون بصحبتهم في هذه النزهة.

حدث كل هذا وانا لم انتبه إلى زميلي جلال الذي كان يجلس على الطاولة المقابلة، وهو لايتوقف عن الضحك.

وضعت بطاقة الدعوة في جيبي وقلت لهذا الشاب وأنا أتصنع العظمة.

ـ شكراً لأنكم تذكرتموني، وسأحاول الحضور رغم أعمالي الكثيرة!..

نظرت إلى جلال بطرف عيني، كان يضحك بخبث.. أنا أعرف.. إنه لا يحبني أبداً. بعد ذلك سألني الشاب.

ـ هل تكفيك بطاقة واحدة؟.. وهل تريد بطاقة ثانية؟..

وضعت نفسي ضمن قائمة الناس المهمين وقلت له:

ـ من المؤكد أن لديكم أناس آخرون غيري سوف تقومون بدعوتهم!.. فأجابني.

ـ لقد طبعنا بطاقات كثيرة، وأنا على استعداد لأن أعطيكم ما تريدون من البطاقات.

ـ إيه.. إذا كان الأمر كذلك، فسوف أكون ممتناً لك إذا أعطيتني بطاقتين أيضاً.

وعلى الفور وضع الشاب بطاقتين على الطاولة فقلت له.

ـ شكراً.

نظرت إليه، كان لا يزال واقفاً وهو ينظر إلي، وأنا أنظر إليه حوالي دقيقتين، فكرت في الأمر، معتقداً أن الشاب يريد التحدث إلى صحفي مرموق مثلي، فقلت له.

ـ تفضل بالجلوس.

ـ شكراً لا أريد الإزعاج.

ـ استغفر الله.

جلس الشاب على كرسي أمامي، ومن يدري، قد يحدث رفاقه بعد ذهابه من هنا عن لقائه مع كاتب كبير، وعن الحديث الذي دار بيننا، ولابد انه سيفتخر بذلك، على كل حال كان يجب عليّ أن أقوم بمبادرة لقاء توجيه هذه الدعوات الثلاث فقلت له:

ـ هل تشرب قهوة؟

ـ أشكرك.

ـ يجب أن تشرب القهوة.

جلال مازال يضحك. أبديت إصراراً من اجل القهوة، جاءت القهوة شربناها، نهض الشاب وقال:

ـ اسمحوا لي يجب أن أذهب.

فنهضت أنا أيضاً وقلت له.

ـ استغفر الله. أكرر شكري لكم لأنكم تذكرتموني. وسأحاول الحضور إن شاء الله. مع السلامة.. تفضل ثانية. أنا بانتظارك. فقال لي:

ـ هل احضر ثانية لكي آخذ قيمة البطاقات.

في ذلك الوقت سمعت صوت ضحكة جلال، وحينئذ أخرج منديله، ووضعه على فمه، وبدأ يسعل.. العمى ثلاث بطاقات كل بطاقات بخمسة عشر ليرة، مجموع قيمتها خمسة وأربعون ليرة.

أخرجت البطاقات من جيبي وقلبتها بين يدي عدة مرات ثم قلت للشاب.

آ.آ. آ. أنا لم أقرأ ما هو مكتوب في البطاقة بشكل جيد. فأنتم تقولون بصحبة زوجاتكم، وأنا إنسان عازب. لذلك أرجو المعذرة.

ـ لا يشترط أن تكون زوجتكم، يمكنكم اصطحاب أي سيدة أخرى!..

ـ والله ليس لي معرفة بأي سيدة.

ـ تستطيع المجيء بمفردك.

ـ في أي يوم ستكون النزهة؟

ـ يوم الأحد القادم.

ـ لا أستطيع الحضور يوم الأحد القادم فلدي موعد آخر!.

ـ لا بأس يمكنك أن تعطيها لي شخص آخر.

عند ذلك أحنيت رقبتي. تناولت واحدة واعدتها للشاب الذي حاول استردادها وضبها في جيبه، وكمن يدس (العيدية) لأحد الأولاد ثم ناولته ثلاثين ليرة، كنت قد اقترضتها هذا الصباح لكي أسدد بها فاتورة الكهرباء.

هناك عادات سيئة لدى الإنسان: إنه يغار من سعادة الآخرين، وإذا أصابته مصيبة فيريد من الآخرين أن يشاركوه. لذلك قلت لجلال.

ـ خذ بطاقة!..

ـ أنا مشغول لا أستطيع الحضور.

فبادرته بالقول، قبل أن يبادره الشاب وقلت له:

ـ هدفنا مساعدة هذه الجمعية الخيرية.

لم يقتنع بكلامي.. وخرج الشاب.

فقال لي جلال:

ـ إنك مغفل كبير!..

ـ وهل أكون مغفلاً إذا ساعدت إحدى الجمعيات الخيرية؟.. ثم إن الولد كان يريد دعوة أحد الكتاب الكبار فجاء إلى هنا.

ـ يا أخي إنه لايعرف من أنت، وما هو اسمك، وما هو عملك..

لم اعد أطيق الصبر، ولكي أكشف مقدار غيرته مني، قلت له.

ـ لو كان الأمر كما تقول أنت، فلماذا جاء إلي، ولم يأت إليك؟

ـ لقد فهم من عيونك أنك مغفل، لذلك جاء إليك فوراً.

ـ فكر كما تريد!..

وفي البيت صرخت زوجتي بوجهي غاضبة عندما شاهدت بطاقات الدعوة.

ـ هل دفعت ثلاثون ليرة من اجل هذه البطاقات؟

ـ قلت لها: وهل من الممكن أن أدفع مثل هذا المبلغ، الشباب قدموا هذه الدعوة لي لأنني كاتب كبير عندها نهضت زوجتي وذهبت فوراً وأخبرت الجيران القريبين والبعيدين بمناسبة ومن دون مناسبة بأننا مدعوون هذا الأسبوع في رحلة إلى البوسفور. أما أنا فقد كنت أخرج البطاقات بدون مبالاة لكي يراها أصدقائي في المقهى. أو الذين أصادفهم في الطريق أو في سيارة السرفيس ولا أخفي عليكم بأنني كنت أقول لهم وأنا اشعر بالفخر والاعتزاز.

ـ لقد أصر الشباب على دعوتي.. هذه هي حال الصحافة، علماً بأنه ليس لدي الوقت لتلبية هذه الدعوات.

كان جميع من يعرف عائلتي أو لايعرفها قد علم بأننا مدعوون إلى نزهة في البوسفور يوم الأحد.

كان لي صديق منذ أيام المدرسة، اسمه إحسان، يقول لي دائماً لكي يحط من شأني «إنك لا تنفع حتى لأن تكون عصا لبلطة». دعوته ليذهب معي في هذه النزهة على كل حال فأنا أملك بطاقتين.

كان مكتوباً على ظهر بطاقة الدعوة «يجب ركوب سفينة «نصر» التي ستبحر من الجسر الساعة الثامنة».

مررنا على بيت إحسان وأخذناه معنا ووصلنا إلى الجسر الساعة السابعة والنصف، بدأت بالتلفيق فقلت لإحسان:

ـ يا أخي إنني مشغول جداً، لقد طلبوا مني كتابة روايتين وحتى الآن لم انته من كتابتهم، لأنني لا أجد الوقت من كثرة الدعوات.. وأنا مضطر لتلبيتها وإلا فسيغضبوا مني. ثم قلت له بعد بضع دقائق.

ـ هذه هي حال مهنتنا!.. بالأمس دعا رئيس الوزراء الصحفيين إلى بارك أوتيل. سهرنا معه حتى ساعة متأخرة، ولم أستطع الاستيقاظ في صباح اليوم التالي إلا بصعوبة فائقة. الساعة تقارب الثامنة ولا اثر لسفينة «نصر».

ـ هكذا هي مهنة الصحافة يا عزيزي إحسان قبل يومين ذهبنا إلى إحدى المزارع بدعوة من السيد المحافظ، أكلنا دراق حجم الواحدة بقدر بحجم رأسي.

أصبحت الساعة الثامنة ولنصف فقلت لإحسان لكي أبرهن له كم أنا رجل مهم، أنت لاتعرف مدى انشغالي.

ـ في الليلة الماضية دعانا سفير هايتي إلى (يشيل كي)، وكنت مدعواً في نفس الوقت إلى اجتماع دولي. ولو كنت مكاني يا إحسان أي دعوة تختار؟..

فعلاً لقد فعلت كما تقول. أمضيت في الأولى نصف ساعة وفي الثانية نصف ساعة. أصبحت الساعة العاشرة ولا وجود للسفينة. ضج الأولاد. بدأت أبحث عن السفن الراسية عند الجسر، لم يكن هناك سفينة اسمها نصر، نظرت إلى الناس كان جميعهم يحملون بأيديهم بطاقات دعوة، وكلهم ينتظرون السفينة، كان البعض يشتم ويسب، والبعض يتحدث عن عملية نصب واحتيال. وبعضهم كان يغادر المكان وآخرون مازالوا ينتظرون، كاد راسي ينفجر.. عل كل أنا صحفي. وسوف يرون ما لايحمد عقباه، إذا كان ما تعرضنا له هو فعلاً عملية نصب واحتيال، ذهبت إلى غرفة رئيس الميناء، وبدون أن أفتح فمي بكلمة ضحك عندما شاهد بطاقة الدعوة في يدي فقال لي:

ـ هل تسأل عن السفينة نصر أيها السيد فقلت له.

ـ نعم أنا ابحث عنها ولا أجد لها اثر.

ـ فقال لي: لقد خرجت السفينة نصر من الخدمة قبل خمسة عشر عاماً وتم بيع محركها إلى هولندا أما هيكلها فيرسو الآن في الخليج.

خرجت من عنده فسألني إحسان.

ـ ماذا جرى؟

ـ كانوا يقصدون الساعة الثامنة مساء لكي تكون النزهة في ضوء القمر!..

كان المدعوين مازالوا ينتظرون وبطاقات الدعوة في أيديهم، لقد ارتحت عندما رأيت أن هناك أغبياء آخرين مثلي، فالمصيبة يكون وقعها خفيفاً إذا كانت عامة.

ركبنا سفينة أخرى وعدت إلى الجريدة ولم أتوقف عن سرد قصص الدعوات لصديقي إحسان وعندما وصلت الجريدة بادرني جلال بالسؤال:

ـ كيف كانت النزهة؟

ـ لقد كنت مغفلاً كبيراً لأنك لم تأت.. لقد تمتعنا كثيراً، ولهونا كثيراً. كان هناك فرقة موسيقية مؤلفة من أربعة عشر عازفاً، تقوم بعزف الموسيقى الهادئة ومن جانب آخر كانت هناك موسيقى الجاز والأغاني والرقص، والأكل والشرب، بحضور معظم الفنانين. يا أخي جلال ما قيمة تلك الثلاثين ليرة فمثل هذه النزهة تساوي أكثر من مائة ليرة.

فقال لي جلال:

ـ لقد أحضر لنا أحد المراسلين هذا الخبر، اختر العنوان المناسب لكي ننشره في الصفحة الأولى.

«أسلوب جديد في الاحتيال. لقد استعملوا اسم إحدى الجمعيات الخيرية، وادعوا بأنهم سيقومون بنزهة بحرية في البوسفور على ظهر السفينة نصر التي خرجت من الخدمة قبل عشرين عاماً، لقد قامت هذه الشبكة بالاحتيال على آلاف المواطنين الأبرياء..

وبناء على الشكاوى المقدمة من هؤلاء المواطنين:..

لم استطع أن اكمل قراءة الخبر، وبدون أن يراني جلال ذهبت إلى معاون رئيس التحرير وقلت له:

- إنني مريض، لن أستطيع العمل هذه الليلة، وعدت إلى البيت.

○ ○ ○

٢٠ ـ اشحذوا ذكاءكم

حضر البوليس السرّي المشهور (شرلوك هولمز) مع صديقه إلى استانبول قبل أسبوع، وفي صباح أحد الأيام رن جرس الهاتف طويلاً.

كان هناك صراخ سيدة يدوي في المكان:

ـ حبيبي!.. حبيبي!.. ثم ينقطع الصوت

كانت سماعة الهاتف مازالت بيد شرلوك هولمز، أما يده الثانية فقد وضعها على صدغه وبقي على هذه الحال وهو يفكر، ثم التفت إلى صديقه وقال له:

ـ لقد عرفت من كان يتكلم بالهاتف.

ـ من كان يتكلم ؟.. ولماذا انقطع الصوت؟..

ـ كانت السيدة التي تتكلم بالهاتف هي عشيقة شرلوك هولمز.

ـ انقطاع الصوت في منتصف المكالمة في استانبول أمر عادي جداً.

فبعد أن سحب صديقه نفساً عميقاً من سيكارته اعترض على هذا الكلام وقال:

ـ أنت مخطئ يا سيد هولمز، فعشيقتك خرجت قبل قليل لاصطياد السمك لذلك فهي لا تستطيع التكلم بالهاتف.

في هذه الأثناء رن جرس الهاتف ثانية وسمعوا نفس صوت السيدة تصرخ:

حبيبي!.. حبيبي!

ثم اغلق الهاتف.

سحب شرلوك هولمز قبعته حتى أنفه ثم قال:

ـ نحن أمام جريمة قتل يا صديقي. لكن صديقه قال له شيئاً، فهم منه شرلوك هولمز أن ليس بالأمر جريمة قتل.

ماذا قال صديق شرلوك هولمز؟

ـ إن هذه السيدة تبحث عن عشيقها بالهاتف، وفي تركيا فإنك بمجرد أن تطلب رقم أحدهم، ستصادف رقماً آخر بالتأكيد. في هذه الأثناء دخلت عليهم سيدة وقالت وهي غاضبة: لماذا لا تجيبون على الهاتف.. لقد مات عشيقي.

وبعد أن مضغ شرلوك هولمز (غليونه) بين أسنانه ثلاث مرات سألها:

ـ أين مات عشيقك يا مدام؟

ـ لقد دخل الحمام في الصباح. وانتظرت حتى منتصف الليل، ولما لم يخرج، انتابني القلق، فتحت باب الحمام، فرأيته مخنوقاً في (مغطس الحمام)

عندها قال صديقه بعد ان قضم آخر أصابعه:

ـ لاتصدّق يا هولمز. أقسم لك بشرفي بان هذه السيدة تكذب عليك.

ـ لماذا تقول هذا الكلام؟

ـ لأنني أعرف بأنه لايمكن أن يتدفق من حنفيات استانبول ماءً يكفي لغرق هذا الرجل.

عندها قال شرلوك هولمز: هم..م..م، ثم التفت إلى المرأة وقال لها:

ـ مدام: إن زوجك لا يمكن أن يختنق بالماء.

صرخت السيدة بوجهه.

ـ ومن قال لك أنه اختنق بالماء؟ لقد فتح صنبور الغاز.

أطلق صديقه ضحكة عالية مثل ضحكات الممثلين اهتزت لها زجاج النوافذ.

لماذا ضحك صديقه؟

ـ لأنه فقد أعصابه.

ـ كلا.

ـ هل لاحظ شيئاً.

ـ كلا، لن تعرفوا.

إن صديقه كان يعلم أنه إذا فتح صنبور الغاز لن يخرج منه غاز بل سيتدفق منه الهواء فقط!..

صحب شرلوك هولمز وصديقه السيدة إلى بيتها فشاهدوا الرجل ملقى على طوله في البانيو، وبعد أن قام صديقه بستر عورة الرجل بمنديله قال:

ـ افتح الغاز يا سيد هولمز ودعنا نستنشق هواءاً نظيفاً.

بعد ذلك سأل شرلوك هولمز الخادمة: متى جاء هذا الرجل إلى البيت؟..

ـ إنه يأتي عادة في الأوقات التي يكون فيها زوج الهانم خارج البيت، فهو يأخذ السفينة من الجسر الساعة السادسة وخمس وأربعون دقيقة ويصل إلى هنا في الساعة السابعة والنصف حتماً.

عندها قال صديقه: السيدة الخادمة تكذب.

ـ لماذا لم يصدق صديقه الخادمة؟

لأنه كان يعرف أن السفن في استانبول لا تتقيد بلائحة المواعيد أبداً.

استدعى شرلوك هولمز جميع معاوني وسكرتيرات الرجل المتوفي من أجل استجوابهم وسألهم.

ـ أين شاهدتم هذا السيد لآخر مرة وفي أي مكان، وكم كانت الساعة؟..

فقالت إحدى السكرتيرات:

ـ إن تربيتي لا تسمح لي بالإجابة على هذا السؤال.

وفيما كان صديقه يعض شاربه بأسنانه قال أحد معاوني الرجل:

ـ أنا آخر من رآه.. لقد ركبنا سيارة السيرفيس من التقسيم الساعة الرابعة. فوصلنا إلى بيازيد الساعة الرابعة وخمس وأربعون دقيقة، وبعدها افترقت عنه.

قال صديقه: هذا محض اختلاق وتلفيق.

ـ لماذا اعتبر صديقه هذا محض اختلاف وتلفيق.

ـ لعلكم تتوقعون الآن الجواب، وسوف تقولون بأن السرفيس في استانبول لا يمكنه أن يقطع المسافة بين التقسيم وبيازيد خلال خمس وأربعون دقيقة.

ـ كلا!..

ـ إذن كان هناك إحصاء للنفوس في ذلك اليوم، لذلك لم تعمل سيارات السيرفيس.

ـ كلا! لقد تكلم صديقه بهذه الطريقة لأنه أراد أن يشوش الرجل، لكي يستطيع قراءة أفكاره من خلال تعابير وجهه.

بقي صديقه ثابتاً مكانه مدة لا بأس بها وهو لا يتحرك ثم قال:

ـ لقد عترفت السر يا سيد هولمز. وأشعل سيكارته.

عندها قال له هولمز:

ـ هل تدري؟ فنحن أمام جريمة قتل مهمة وصعبة للغاية.

عندها صرخ صديقه السيد قائلاً:

ـ أخيراً مسكت طرف الخيط...

نطق الشخص الميت وهو متعلق في مكانه.

ـ أرجوكم.. لاتشدوا حزامي الذي وجدتموه أخيراً!..

قال شرلوك هولمز للميت:

ـ اسكت أنت، فمن المفروض أنك ميت حسب الأدلة القطعية المتوفرة لدينا.

ـ كيف تكلم الميت؟..

ـ لقد فكر الكاتب أيضاً باختراع سبب ولكنه لم يتمكن.

○ ○ ○

٢١ ـ طبيب الأعصاب

بعد طول عناء فتح طبيب الأعصاب عيادة وسط المدينة، ورغم ذلك لم يقصده الزبائن.. عفواً المرضى.. لم يأت أي منهم إلى هذه العيادة، ولم ينفعه علمه أو اختصاصه في أوروبا، ولاحتى مهارته في أن يربح مالاً.

بدأ يعاني من صعوبة الحياة حتى أن هذه المعاناة بدأت تؤثر على لقمة للعيش وبعد تفكير طويل واستناداً إلى خبرته الطبية، وجد طريقه لحل أزمته، فعلق لوحة على باب العيادة وكتب عليها «العيادة مفتوحة لاستقبال المرضى في أيام العطل» كما نشر هذا الكلام في الصحف.

من الطبيعي أن الناس في أيام العطل لايذهبون إلى العمل، وهم مضطرون لقضاء أوقاتهم في البيوت، إذن فلا بد من أن تتعب أعصابهم أكثر من باقي الأيام، وخاصة في مثل هذه المدينة الكبيرة التي لا يمكن إلا أن تُتعب الأعصاب، وفي هذا الوقت سوف تحتاج إلى طبيب، والأطباء لايعملون في هذا اليوم، لأن معظمهم يمضي عطلة نهاية الأسبوع.

هذا ما فكر فيه طبيب الأعصاب الشاب، وفي أول يوم عطلة بعد نشر الإعلان في الصحف، رن جرس العيادة، ودخل رجل إلى غرفة الطبيب وهو يملأ الدنيا صراخاً وقال للطبيب:

ـ أرجوك يا سيدي الطبيب، لقد تحطمت أعصابي، أرجوك أعطني علاجاً مهدئاً.

كانت يدا الرجل ورجلاه ترتجفان فسأله الطبيب.

ـ ما بالك؟ ماذا جرى؟ تكلم.

بدأ الرجل الذي تحكمت أعصابه بالكلام.

ـ لم اعد أستطيع الاحتمال، لقد وصلت معي إلى هنا (وأشار إلى أنفه).. هذا يكفي حتى في يوم العطلة، لا يستطيع الإنسان ان يرتاح في بيته أو يلتقط أنفاسه! ماهذا العذاب؟..

ـ هل تشكو من أحد؟

ـ ممن سأشتكي.. هل يوجد غيرها!.. زوجتي.. تقول أنها لم تعد تطيق هذه الحياة، وأن عظامها تلفت من العيش في منزل تحت الأرض، المشبع بالرطوبة.. وهي إنسانة. تريد أن تتنزه وترى الدنيا.. وعمر الإنسان في هذه الدنيا يومان. وبعد اللّت والعجن تابعت حديثها، هل أنت رجل؟ لماذا لا تتأبط ذراعي في يوم العطلة وتصحبني إلى السينما.

يا سيدي الطبيب.. أرجوك، اللحّام، اللحمة، الحليب، ما العمل أنا لا أفكر سوى بالطريقة التي تمكنني من إملاء بطون الأولاد، وكيف سأضغط على ابني «والي» لكي يلبس ثياب أخيه «علي»، وثياب «والي» كيف سيلبسها «علي». وماهم زوجتي سوى الذهاب إلى المسرح والسينما.. فماذا ستفعل لو كنت مكاني إلا تتحطم أعصابك!..

كان المريض لا يتوقف عن الحديث، ولكن الطبيب شرد بتفكيره ولم يعد ينتبه لكلام هذا الرجل، بل بدأ يفكر في حياته العائلية، فقبل

قليل تشاجر مع زوجته، تماماً كما تشاجر هذا المريض مع زوجته، وأصرت على أن نمضي هذا اليوم في نزهة في الهواء الطلق.

دخل مريض آخر.

ـ أنا مضطرب يا دكتور، يداي ورجلاي ترتجفان. أرجوك أعطني روحاً!.. افعل ما تريد.. آه سيغمى عليَّ.. لم يتب علينا الله بعد من التشرد في بيوت الإيجار.. إنهم أصحاب البيوت الملاكين، آه.. آه لقد شكوتهم إلى الله إنهم لا يدعوا أحداً يرتاح في بيته حتى في يوم العطلة. الجرس يرن، ما الأمر؟ نريد الإيجار.. أنتم تسكنون مجاناً في هذا البيت، وليس لديكم إنصاف أو ذمة أو إيمان، وتأكلون حقوق الناس.. وأشياء أخرى.. لم أعد أستطيع الاحتمال.. فهرعت إلى هنا.

فقال له الطبيب:

ـ تفضل.. اجلس لكي أكتب لك الوصفة اللازمة.

لكن عقل الطبيب كان عند صاحب بيته فقد طلب صاحب البيت زيادة أجرة البيت وإلا فإنه سوف يتقدم بشكوى إلى المحكمة، كانت يدا الطبيب ترتجفان من الغضب. وفيما كان الطبيب يكتب الوصفة، دخل مريض ثالث، كان هذا المسكين لا يتوقف عن الندب وجسمه يرتجف، وهو يقول.

ـ انتهبت.. لقد انتهبت.. لم اعد أطيق الحياة.

ـ مم تشكو؟

ـ كلا لايمكن.. لقد وصلت السكين إلى العظم.. لم يعد يهمني شيء.. أرجوك يا دكتور أنقذني بحقنة فإن وصل قلبي يكاد أن يتوقف.. هؤلاء السائقين عليهم ما يستحقون من الله.

وفي الوقت الذي كان يتحدث فيه المريض عن قصته مع السائق، ذهب تفكير الطبيب إلى الحادثة التي جرت معه أمس مع أحد السائقين، ولو لم يتناول حبتي مهدئ دفعة واحدة في تلك الليلة لما تمكن من النوم، لقد توترت أعصاب الطبيب وشعر وكان السائق يقف أمامه الآن وبوده لو أنزل لكمة على أنفه.

في هذه الأثناء دخلت امرأة في متوسط العمر إلى غرفة المعاينة وسقطت وسط الغرفة في حالة انهيار، حاول الطبيب مساعدتها لكي تنهض فأجهشت بالبكاء وقالت: ماهذا الذي أعانيه أنا، وبدأت في البكاء.

كانت السيدة المسكينة تشتكي من ولدها الذي لاخير فيه.

ـ لقد ارتخت أطرافي يا دكتور.

وفيما كان الطبيب يجهز الإبرة المهدئة للأعصاب لحقن هذه السيدة، ذهب تفكيره إلى أخيه، فهو بالرغم من أنه أصبح رجلاً، إلا أنه عاطل عن العمل، ولا يتوانى عن طلب المصروف. ووسط هذا التفكير سقطت الحقنة من يد الطبيب وهو يتخيل أخاه، ويود توجيه صفعة قوية على وجهه.

المرضى يدخلون تباعاً وكان الصالون يزدحم بهم، بعضهم يصرخ والبعض يبكي، وآخرون يضربون أنفسهم، وبعضهم كان يلقي بنفسه من مكان إلى آخر.

دخل أحد المرضى الشباب وقال:

ـ أنقذني يا دكتور وإلا فإنني سأرتكب جريمة، قال ذلك، وهو يشد شعره ويضرب رأسه في الجدار.

ـ إنها زوجتي يا دكتور.. زوجتي، أنا أشعر بأنني أربي أفعى في حضني. امتقع لون الطبيب، وقال في نفسه، يا ترى هل أن زوجة الرجل هي الأفعى الوحيدة، فزوجتي أيضاً على هذه الشاكلة، وكم من مرة قلت لها والألم يعتصرني «إنك لا تهتمين لي أبداً».

كان هناك شخصاً آخر، هذا المسكين كان يرتمي ذات اليمين والشمال وبالكاد استطاع الطبيب فهم معاناته، إنه مدين وصاحب الدين يريد أن يحجز عليه في الغد.

عندما سمع الطبيب ذلك وقف شعر رأسه وفكر بأن مثل هذه المصيبة قد تقع عليه. كان المريض يقول للطبيب.

ـ تصور يا دكتور بان الشرطة ومأموري الحجز الغرباء سيدخلون بيتي وغرفة نومي.. وسيعبثون بأشيائي.

كان الطبيب قد استدان من عدة أشخاص أموالاً لكي يفتح العيادة وقد ذيّل السندات اللازمة بتوقيعه، وحتى إذا قام بتسديد الفوائد المترتبة على هذا الدين فإن الدائنين سوف يضغطون مطالبين بتسديد الدين. احتد الطبيب وغضب كثيراً.

ـ مم تشكو أنت؟..

ـ أليس واضحاً ما أشكو منه؟.. ألم تفهم يا دكتور؟.. انظر في أي حال أنا!.. هل يمكن أن يعيش الإنسان بدون قهوة، وبدون شاي؟.. إنك لا تجد في الأسواق شيئاً حتى المسامير التي تستعمل في تركيب النعال، تصور.. أرجوك يا دكتور.. تصوّر بلداً لا يوجد فيها مسامير نعل، كيف ستكون نهايتها؟.. كان الطبيب يعاني أيضاً من صعوبة إيجاد العلاج والأدوات الطبية.

لازال المريض الذي فقده أعصابه يصرخ.

ـ ستغرق البلد إذا فقدت مسامير النعل، وسوف نذهب إلى الهاوية، يجب حل مسألة مسامير النعل..

فجأة امتقع وجه الطبيب، وتغيرت نظراته، وبدأ يقطع شعره صارخاً وهو يرتجف.

ـ مسامير النعل!.. مسامير النعل!..

نريد مسامير نعل نظيفة..

نريد مسامير نعل نظيفة.. نريد مسامير نعل جيدة.. نريد كثيراً من مساميرالنعل!..

كان طبيب الأعصاب يصرخ بأعلى صوته حتى وصل صوته إلى الشارع.

ـ مسامير النعل!.. مسامير النعل!.. مسامير النعل!..

○ ○ ○

KMH

٢٢ ـ وحش الباب العالي

أيها السادة!.. هناك كلمة في القاموس اسمها العيب، ألم تصادفوا هذه الكلمة؟.. يقولون أن الإنصاف هو نصف الدِّين، دعك من هذا حتى ولو كان الإنصاف ربع الدِّين، كان يجب أن لا يكتبوا ما كتبوه. لماذا كل هذا الحقد وهذا التحامل!.. فأنا لم أطأ بقدمي على رجل أحدكم.

كانوا يبحثون عني بعد ان أصدرت كتاب (عزيز نامة)، أخيراً قبضوا عليَّ، ودخلت السجن وأمضيت فيه ستة اشهر، كان السبب في دخولي السجن هو الدعاوي التي أقامها ضدي وزراء الدولة في كل من إنكلترا ومصر وإيران، وبعد ذلك أطلق سراحي.

ولنقرأ ما نشر عن خبر اعتقالي في الصحف الصادرة في اليوم الذي ألقت فيه الشرطة القبض علي، لقد كتب أحدهم ما يلي:

قامت ليلة الأمس الشرطة السرية بالبحث عن عزيز نيسين في كل مكان، وقد تم القبض عليه أخيراً في أحد المقاهي متنكراً بلحيته الطويلة وشعره، حاول عزيز نيسين إبداء بعض المقاومة لكنه لم يتمكن من ذلك وأرسل مقيداً إلى السجن.

صحفي آخر، كتب ما يلي:

قال عزيز نيسين في إفادته للشرطة: «إنه كان يمضي معظم الليالي في الحدائق والبراري والمقاهي التي تبقى مفتوحة حتى الصباح»

لنقرأ ما كتبه صحفي آخر «من المحتمل أن يكون عزيز قد غادر البلاد وهرب.. أخيراً تم القبض عليه وهو يهم بالدخول إلى إحدى الحانات في (قره كوي) دعونا نقرأ هذه الكتابة: «بالرغم من البحث الذي قامت به الشرطة عن الأشخاص ذوي الميول اليسارية، في كل من مناطق (قاسم باشا)، (بي اوغلو)، و(التقسيم) وما حولهما إلا أنها لم تتمكن من القبض على المتهم بشكل من الأشكال، وأخيراً وبعد مضي أربعة اشهر من البحث تم القبض على الفار عزيز نيسين من قبل رجال الأمن.. في إحدى الحانات الواقعة بالقرب من ميناء (قاضي كوي)، وهو يتعاطى المسكرات مع ثلاثة من أصدقائه، وكان يترنح ولا يستطيع الوقوف على رجليه».

العمى.. معنى ذلك أنه شخص خطير جداً!.. كنت اشعر بالخوف من نفسي كلما قرأت الصحف. هل أنا وحش (أنقرة)، أم وحش (أضنا بازار) أم وحش (ينده) أم أنا وحش الباب العالي الجديد.. بعض الصحف كتبت قبل فترة أنهم كانوا يبحثون عنه بجرم تحقير القومية التركية، ولكنكم تفهمون لماذا كتبوا ذلك. وسوف أشرح لكم حقيقة الأمر.

لماذا كنت هارباً، ؟.. وممن هربت..؟ فقد أوضحت السبب أمام المحكمة. استأجرت غرفة في أحد بيوت قاضي كوي وكنت أمضي كل أيامي بالقراءة والعمل بدون أن أرى أو أتحدث مع أحد. مستفيداً من المثل القائل: الشرطة لا تدخل دور الكتب، كما الشياطين لاتدخل دور العبادة وبدأت أمضي معظم أيامي بالقراءة في مكتبات استانبول.

بعد مدة تضايقت وأصابني الملل، من العمل المتواصل ومن الوحدة،

وفيما كنت أتجول بين الأزقة فكرت باستئجار بيت مريح لكي أعمل في جو هادئ وبدون أي شعور بالخوف فلا بد من أن يأتي الفرج ويبتسم لي الحظ.

وهكذا ذهبت إلى (قاضي كوي) بهذه الأفكار، كنت أسمع صوت أمواج البر وهي تصطدم بالصخور، وكانت الرياح الرطبة تلامس شعري، والقمر يعكس أشعته على سطح الماء.. وأمامي استانبول تشع بأنوارها.. وعلى مقربة مني مقهى تنبعث منه أصوات الموسيقى الحالمة.

فقلت في نفسي

حان الوقت لآخذ قسطاً من الراحة. وكما فهمت أن أحمد براكم ومحمود يساري يؤمان هذا المقهى. كان في جيبي خمسة عشر ليرة، فدخلت فوراً إلى الملهى.

- أعطني بيرة، جبن رومي، بطيخ أصفر.

وتعال أيها الكيف!.. قمر وبحر وموسيقى وبيرة، لقد كان ذلك وأنا في بداية عامي الأربعين.

لم يكن ينقصني شيء أبداً، سوى أن يكون عندي عشيقة. غرقت في عالم الأحلام، فمددت يدي اليمين على مسند المقعد المجاور وحضنته وأنا احلم بالعشيقة. كانت آذاني مشدودة لسماع الموسيقى، وعيناي تتجولان في أضواء استانبول وذراعي على كتف حبيبتي.

- هات زجاجة بيرة ألمانية يا كرسون.

كنت أقول لنفسي تمتعي ما شئتِ فقد لايجود عليكِ الزمن بمثل هذه الفرصة مرة أخرى. في هذه الأثناء حصلت حركة في المقعد

الذي كنت أحتضنه بيدي اليمين. أحسست بدفء إنسان حيّ.. حتى لا أفسد على خيالي، لم التفت لأرى ماذا يحدث. وقلت في نفسي أن الحبيبة التي تمنيتها قد أتت الآن!..

بعدها سمعت صوتاً مهذباً يهمس في أذني.

- عزيز بك!..

- حبيبتي.

- عزيز بك!..

- ياروحي.

لكن صوت الحبيبة قد بدأ يصبح أغلظ.

- عزيز بك!..

- أمركِ يا كبدي.

- سنذهب سوية إلى المديرية!.

أدرت رأسي، كان من ظننته حبيبة هو أحد موظفي الشعبة الأولى.

فقلت له:

- اليوم هو السبت وأنا لا أريد أن أمكث ليلتين في المديرية. رجاءاً اسمح لي الآن وأنا سأحضر من تلقاء نفسي يوم الاثنين فقال:

- لايمكن.

- إذن دعني أنهي شرب هذه البيرة.

- لايمكن.

أصرّ وأبدى كثيراً من اللطف لكي يدفع حساب البيرة التي شربتها

ولكنني لم اقبل، وكان من الطبيعي أن لا اقبل، ثم ذهبنا ونحن لم نتوقف عن الحديث أبداً. هذا هو كل ماجرى.

هكذا تم القبض على وحش الباب العالي، وأنا لا أريد أن أقول شيئاً سوى (لتبلى عيون الحظ بالعمى) فقد رغبت أن أسرق ليلة من العمر وأنا في بداية الأربعين ولكنني لم أستطع.

حاشية:

هذه الحادثة حقيقية جرت في عام ١٩٤٨ عندما كانت البلاد تعيش عهد الحزب الواحد، كان الحزب الحاكم في ذلك الوقت هو حزب الشعب الجمهوري وكانت أياماً صعبة.

بعد ذلك جاء نظام تعدد الأحزاب، وحُكم الحزب الديموقراطي. وبدأنا نعاني من صعوبة الحكم أيضاً، كانت مهمتنا هي محاربة الفساد والمفسدين، ولكن هذه المرة وجهنا أقلامنا لانتقاد الحكم الجديد.

وفي ١٩٥٩ اشتد الضغط علينا كثيراً، وفي أحد الأيام وبينما كنت ذاهباً من (قاضي كوي) إلى استانبول بالباخرة شاهدت الشرطي السري الذي كان يحدثني بقوته الخشبية في الحادثة التي رويتها لكم أعلاه، كان يركب الدرجة الممتازة، تصنعت بأنني لم أره وجلست في الصالون، ولأنه مضى على تلك الحادثة حوالي عشر سنوات فقد توقعت ان يكون هذا الشرطي قد اصبح معاوناً أو رئيس قسم.

رآني الرجل فاقترب مني وجلس بجانبي وبدأ بالحديث ممتدحاً كتاباتي ونضالي ضد الحكم حتى كاد أن يرفعني إلى السماء.

كان هذا الرجل من أشد أنصار حزب الشعب الجمهوري،

ويتحامل على الحزب الحاكم، ثم قال لي: «لقد كنت الأسد الذي أنقذ الوطن»

دهشت كثيراً. لكنني دهشت بعد ذلك أكثر عندما سألته:

ـ هل أصبحت رئيس قسم الآن فقال لي:

ـ كلا يا عزيزي، لقد تركت سلك الشرطة منذ زمن بعيد.. وهل يمكن أن تعمل في الشرطة مع هؤلاء الناس، أنا الآن متعهد أقوم بمشاريع سكنية لحسابي الخاص ثم أبيعها للمواطنين. لكن المواد الأولية أصبحت أسعارها مرتفعة جداً، كما أنها مفقودة من الأسواق.

وفيما كنا نفترق عند الجسر، وقفت فترة طويلة وأنا أفكر في هذا الشرطي القديم والمتعهد الجديد.

هذه الحادثة كانت مثار دهشتي، ولكن من يدري فقد لا تندهشون أنتم لمثل هذه الحادثة أبداً.

○ ○ ○

٢٣ ـ التسلط

رغم أنني كنت أعلم بأن الدوائر الرسمية لا تبدأ عملها قبل التاسعة، إلا أنني كنت أذهب كعادتي كل يوم إلى هناك في الساعة الثامنة.

أنا أكره موظفي الدرجة الخامسة أو السادسة، يعني طبقة الخدم والحجاب..... وسبب كرهي لهؤلاء هو خوفي منهم... إنهم يقابلوني بالترحيب عندما يصادفوني لأول وهلة، وكأنهم على معرفة بي منذ زمن بعيد. ينظرون إلى ثيابي فيحسبون أني واحد منهم. وهذه الطبقة الدنيا من الناس لايمكن أن تأمن لها أبداً. أما طبقة الناس المهمّين، فلا يمكن أن يصيبك منها أذى، فلم يبادر أحد من هؤلاء إلى طردي منذ عدة سنوات، وهم عندما يرغبون في طردي فلا يطلبون ذلك بأنفسهم، بل يكلفون واحداً من ذوي الدرجة الخامسة أو السادسة لكي يقوم بهذا العمل.

كان هناك خادمين، وضعا خرقة بالية في رأس عصا، لتنظيف درجات الرخام للمدخل الرئيسي، وحتى لا يطردوني عندما يشاهدونني، وقفت على الرصيف المقابل.. بحيث أستطيع رؤية جميع الموظفين عند دخولهم من الباب الرئيسي.

بدأ المطر يتساقط.. ولم أعبأ دخول الماء إلى حذائي البالي، ولكنني خفت على الأوراق الموجودة في حقيبتي من أن تصاب بالبلل، لذلك حاولت وضعها تحت الجاكيت (كان من عادة الخدم والحجاب أن

يسخروا مني ويقولون لي إن هذه الحقيبة أشبه بحقائب السفر. صحيح أنها كبيرة ولكنها لا تشبه حقائب السفر أبداً).

وقف الخادمان عند عتبة باب المدخل الرئيسي وقد استند كل منهما على العصا التي كان ينظف بها، وبدأا يتحادثان، لم اكن أسمع ما يقولان، ولكنني فهمت من نظراتهم لي أن كلامهما موجه إليَّ، ولعلّهم كانوا يقولون (هاقد جاء مرة أخرى».

أنا لا أريد سوى إنهاء معاملات الميراث وبعد أن أقبض حقوقي، سأحضر إلى هنا لأوزع على هؤلاء السفلة القذرين النقود الكثيرة، ليس بسبب حبي لهم، بل لأنني أكرههم، وأودُّ الحطّ من كرامتهم، سأدفع لهم أكثر من رواتبهم.. ولكن قبل أن أضع النقود في يدهم سوف أمررها عدة مرات لتلامس أنوفهم... وعند ذلك سوف أرى كيف سيركعون أمامي احتراماً وإجلالاً، وسوف يعرفون من أي صنف أنا وسيتأكدون بأني لست من صنفهم أبداً.

بدأ الخدم بالحضور، واحداً تلو الآخر، فلجأت إلى الطرف الآخر من الزاوية حتى كدت ألتصق بالجدار، لكي لا يراني أحد منهم. لقد تعودوا على طردي حتى ولو رأوني في الشارع، وعلى الأخص ذلك البواب السافل.

وتلاهم الموظفون بالحضور واحداً تلو الآخر، نظرت إلى الساعة المعلقة على باب دكان بائع المعجنات في الرصيف المقابل، فكانت تشير إلى التاسعة إلا عشر دقائق.

في هذا الوقت مر أمامي الرجل ذو النظارات والذي لم أشاهد قط أنه قد حلق ذقنه.. لقد أصبحت على معرفة بجميع الموظفين العاملين

في هذه الدائرة، فأنا أعرف أسماءهم ونوع عمل كل منهم، ماعدا هذا الرجل الذي يضع النظارات على عينيه، فكنت لا أعرف في أي غرفة يعمل، رغم أنني كنت أشاهده صباح كل يوم عندما يأتي إلى الدائرة حاملاً معه حقيبة سوداء بإحدى يديه، وصرّة صغيرة لفها بجريدة في اليد الأخرى، وكنت أظن أن داخل هذه الصرة طعام غذائه.. كان يسير باتجاهي وهو يبتسم فتجشعت عندما شاهدت ابتسامته وقلت له: «صباح الخير».. فكرت بأنه سيرد التحية إلا أنه قال لي: «لماذا كان حاجب السيد المدير يصرخ في وجهك البارحة؟..».

ـ «لابد أنكم تعرفون هؤلاء الناس، فأنا لا أستطيع التفاهم معهم، لأنه ليس بيني وبين هذه الطبقة أية مفاهيم مشتركة..».. وقف أمامي وبدا يتفحصني بنظراته ثم قالي لي: «لقد أصبح المطر غزيراً».

ـ «أستغفر الله»... هذه عادتي أخطئ دوماً ثم اخجل من نفسي كثيراً، لقد سقطت كلمة استغفر الله من فمي سهواً.. مثل هذه المواقف تجعلني عُرضة لسخرية الآخرين، وكأنه لا يكفيني ما أعانيه أصلاً من الخجل.. سألني الرجل بدون أن يضحك: «هل لديك عمل عندنا؟..».

ـ «نعم»، أنا أحضر إلى هنا كل يوم منذ سنوات من أجل معاملة الميراث.. فقال لي: «تعال معي، إنك تتبلل» مشينا سوية وصعدنا الدرجات الأربع ثم دخلنا الدائرة، وعندما شاهدت أحد الخدم وهو يحمل بيده صينية القهوة اختبأت فوراً خلف الرجل ذو النظارات، لاحظ الرجل مدى خوفي، ولكي يحميني من هذا الخادم مسكني من يدي وتابعنا المسير.

لم أكن أعرف أن في هذه الدائرة مكاناً اسفل الطابق الأول، بدأنا ننزل على الدرج ونلف وندور حتى وصلنا إلى القبو، كان المكان مضاءً بمصابيح الكهرباء لأن نور النهار لا يصل إليه، مشيناً في ممر طويل جداً لدرجة تخيلت فيها أننا خرجنا من ذلك البناء، ودخلنا مباني أخرى وأننا نسير في نفق طويل، دهشت كثيراً من عدم رؤية باب في هذا الممر الطويل، عدا الباب في نهاية الممر. فتح الرجل الباب فانبعثت منه رائحة أمونياك شديدة، تبعتُ الرجل فسألني: «هل تريد الدخول أيضاً؟..»

- «لقد دعوتني أنت»

- «هنا مراحيض»

- «لقد حسبت أنها الغرفة التي تعمل بها أنت!..». عندها قال لي: «أمسك هذه الأشياء».. وأعطاني حقيبته السوداء والصرّة. ووقفت أمام الباب أنتظره، لم يكن هناك أي حركة، كما لم أشاهد أحداً في هذا الممر الطويل. لقد انتظرته طويلاً وبدأت أفقد الأمل في خروجه، ولو لم يترك عندي حقيبته وصرته، لكنت تركته وذهبت..

حاولت فتح الباب، لكن الباب كان مقفلاً ولعله قفله من الداخل، وبعد أن انتظرت فترة أخرى، قرعت الباب بيدي، فسمعت صوتاً من الداخل يقول: «ادخل».

- «إنكم قفلتم الباب»

- «طبعاً يجب أن أقفله فهنا مرحاض»

- «ولكنك تقول لي ادخل!..».

- «لقد ظننت نفسي أنني في غرفتي عندما قرعت عليَّ الباب لذلك

قلت لك ادخل» فسألته «وماذا سأفعل أنا» فصرخ وهو في الداخل «حتى هنا لا يتركون مجالاً لكي ترتاح»

ـ «هل أستطيع أن أترك حقيبتك وصرتك واذهب؟..»

ـ «طبعاً يمكنك الذهاب»

ـ «ولكنني لا أستطيع الذهاب»

«في هذه الحالة انتظرني، فأنا سوف أساعدك»، «إن أكبر مساعدة لي هي في خروجكم بسرعة وإلا فسأصبح في موقف صعب»

ـ «لقد انتظرت طيلة هذا الوقت، ولن يطول انتظارك أكثر من الوقت الذي انتظرته». وضعت حقيبته والصرة على الأرض وبدأت أتلوى، وكنت أقف مرة على رجلي اليمنى، ومرة على رجلي اليسرى، وأنا أحاول تمالك نفسي. في هذه الأثناء سمعت وقع أقدام خلفي، ولم ألتفت من خجلي لكي أرى من القادم!.. ولكنني فهمت أنهما كانا اثنين، وفيما كانا يسيران من جانبي سأل أحدهم الآخر: «ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟..». فقال له الآخر: «إنه يرقص» وكأنه لم يكتف بهذا الجواب فسألني: «ماذا تفعل هنا؟..» بعد ذلك فُتح الباب وخرج الرجل ذو النظارات، فرميت نفسي فوراً وبما أن المكان كان ضيقاً فقد تركت حقيبتي خارج المرحاض، فوجئت بعد دخولي للمرحاض إذا لم أعد أشعر بحاجة للتغوط!.. إذن لماذا كنت أتلوى..؟ وفيما كنت أفكر في هذا الوضع، فتح أحدهم الباب لأنني نسيت إغلاقه فقلت للمرأة التي فتحت الباب (معذرة).

ـ «هل السيد سليمان بك هنا؟..»

ـ «كلا».

ـ عندها رفعت حاجبها وقالت: «إذن أين هو؟..».

كان يبدو من طريقة سؤالها بأنه من المفروض علي أن اعرف أين سليمان. فقلت لها وأنا أظن أن الرجل ذو النظارات هو سليمان بك «لقد خرج قبل قليل ولا أدري إلى أين ذهب!..».

ـ سألتني: «ألم يضق المكان بكما أنتما الاثنان».

ـ «لقد دخلت أنا بعد خروجه من هنا».

ـ «ماذا سأفعل الآن!». ولأن المرأة كانت قد أغلقت الباب جيداً قلت لها: «اسمحي لي أن أخرج من هنا».

ـ «لم أقصد ذلك». «أنا أسألك أين سأجد سليمان بك؟» عندها سقطت من فمي كلمة في غير مكانها فقلت لها «شكراً». بدأت المرأة بالضحك ثم انصرفت.. لقد ذبت خجلاً.. خرجت فلم أجد حقيبتي، وكدت أفقد عقلي، فالحقيبة تحتوي على جميع الوثائق والثبوتيات التي تؤكد حقي في الميراث!.. لم أعد أعرف كيف سأتصرف فبدأت أصرخ «سليمان بك..» وكانت أصداء صوتي تنتشر في هذا الممر الطويل.

ركضت خلف السيدة وأنا أصرخ «سليمان بك... سليمان بك.. سليمان..» ولكنني لم أجده، ولا أدري كيف عرفتُ فيما بعد أنني كنت أسير في الاتجاه المعاكس. فقد كان هناك ممران آخران في نهاية هذا الممر. واحد على اليمين وآخر على الشمال. وأما الممر الذي كنت أسير فيه، فقد تبين لي أنه ممر آخر متعامد مع الممر الذي أتيت منه أنا وسليمان بك.. رجعت، وحاولت الصعود إلى الطابق الأول، فسلكت الطريق الذي جئنا منه لكي أصعد الدرج الذي نزلنا منه، ولكن عبثاً

حاولت، فلم أتمكن من معرفة الطريق. انحرفت نحو اليمين ونحو الشمال وسرت في كل الممرات، وركضت في جميع الاتجاهات ولكن دون جدوى، كنت أضع راحتي كفي على فمي وأصرخ بأعلى صوتي «سليمان بك..». سمعت صدى صوتي، ولكن الصدى كان هذه المرة ليس لصوتي وإنما لصوت آخر، سمعت كلمة «نعم. م. م» تابعت الصراخ بأعلى صوتي «سليمان بك..» وتابعت السير في اتجاه ذلك الصوت العميق الذي قال: «نعم. م. م» حتى وجدت نفسي أمام أحد الأبواب، فتحت الباب وإذ بي أجد تلك المرأة التي تحدثت معها قبل قليل.

سألتها هل رأيتِ «سليمان بك»

ـ «أي سليمان بك!»

ـ «أنا لا أعرف أي سليمان بك!..» فقالت لي: «ولكن هناك موظفون كثيرون اسمهم سليمان بك، فعن أي واحد تسأل!..»

ـ «عن الذي أخذ حقيبتي».

ـ «وهل أخذ حقيبتك أيضاً..؟»، «لا أنا أبحث عنه وأرجو أن تخبرني عندما تجده».

ـ «عفواً لقد سببت لك إزعاجاً، أرجو أن ترشديني إلى الطريق لكي أصعد إلى الطابق الأول» فقالت لي «ستصعد على الدرج طبعاً!..» فقلت لها: «طبيعي جداً» وبدأت أسير في الممر دون هدىً، ولم أستطع رؤية الدرج بشكل من الأشكال، فعدت ثانية إلى السيدة كي أسالها عن مكان الدرج، فلم أعثر على باب غرفتها، فوضعت راحتي كفي على فمي ثانية وبدأت اصرخ «سليمان بك..!» فسمعت ذلك الصوت

العميق الذي كان ينعكس صدىً لصوتي يقول «نعم. م. م» سرت باتجاه الصوت فرأيت الدرج، صعدت الدرج بسرعة إلى الطابق الأول، فرأيت الموظفين والمواطنين الذين جاؤوا لمراجعة معاملاتهم، كما رأيت الحجاب أيضاً.. قررت أن لا أغادر هذا المكان حتى لو طردني الحاجب أو ضربوني.. لأنني سأصبح بحكم المنتهي بعد أن أضعت حقيبتي، سألت أحد الحجاب: «أين سليمان بك؟» ولعل سؤالي كان بمنتهى الجدية حتى ظن الحاجب أنني شخص مهم فقال لي: «في الطابق الثالث، أول غرفة على اليمين، حاول الحاجب منعي من الدخول.. ولكنني دخلت الغرفة بسرعة.. كانت الغرفة واسعة جميلة، مفروشة بشكل أنيق يجلس في صدرها خلف الطاولة رجل في مقتبل العمر، أنيق المظهر، وقف هذا الرجل وجاء في اتجاهي وصافحني وقال لي: «أهلاً وسهلاً».

ـ «شكراً» كان لطيفاً جداً، أشار إلى المقعد الموجود أمام الطاولة وقال: «تفضل أيها السيد» جلست، كان الرجل يتصرف معي بمنتهى اللطف فقلت له وقد انتابني الخجل: (إنني أبحث عن سليمان بك ياسيدي»

ـ «نعم أنا سليمان بك».

ـ «ليس أنتم الرجل الذي شاهدته في المرحاض..!».

ـ «يمكن أن يكون سليمان بك آخر» ثم أضاف: «وماذا كنت تريد منه؟»،

ـ «لقد أخذ حقيبتي» ضرب على زجاج الطاولة بأصابعه ثم سألني «ولماذا أعطيتموه حقيبتكم؟..» فاضطررت لشرح الموضوع.

ثم أعاد علي السؤال «أي سليمان بك ؟..».

- «سليمان بك الذي أخذ الحقيبة.».

سألته وأنا أشعر بالفرح «إذن فأنت تعرفه» فقال لي بمنتهى برودة الأعصاب: «لا أعرفه، قلت أنك تبحث عن سليمان بك الذي أخذ الحقيبة أليس كذلك؟..».

قرع باب الغرفة فقال سليمان بك: «ادخل». فدخل رجل حسن المظهر مع الحاجب الذي حاول أن يمنعني من الدخول قبل قليل، وقف الحاجب بحالة استعداد، أما الشخص ذو المظهر الحسن والذي حسبته موظفاً في هذه الدائرة، مال على سليمان بك وهمس في أذنه ببعض الكلمات. وهو يلتفت إليَّ بين الحين والآخر. كان يتكلم مع سليمان بك وينظر إلي بطرف عينيه، شعرت بأنه كان يتكلم عني، ثم نظر سليمان بك إلي.. لقد سمعت كلمة «مجنون» عندما كان الرجل يهمس في أذن سليمان بك، وكرر هذه الكلمة عدة مرات. عندها قال سليمان بك للرجل: «يا.. صحيح.. هم مم» بعد ذلك توقف الرجل الهامس عن الكلام ثم نظر إلي بانزعاج وأشار بيده فمسكني الحاجب من كتفي لكي يطردني، فقفزت من مكاني بسرعة وقلت لسليمان بك «أنا أبحث عن حقيبتي يا سيدي، وكل ما قالوه لك عني لا أساس له من الصحة».

- «أنا أفهم ما تقول أيها السيد» ثم التفت وقال للآخرين: «شكراً، بإمكانكم الذهاب، بقيت واقفاً بعد ذهابهم وأنا لاأدري ماذا يجب أن أفعل فقال لي: «رجاءً، تفضل بالجلوس» شكرته. فسألني «هل حقيبتكم قديمة؟..».

- «نعم قديمة».

- «ماذا يوجد بداخلها»، «بداخلها جميع الوثائق الخاصة بالميراث».

كان لا يتوقف عن إصدار أصوات الإيقاع، وهو ينقر بأصابعه على زجاج الطاولة. ثم يضرب أصابعه براحة كفه بعد أن يتعب من النقر على الطاولة، كان يكرر هذه الحركات بدون توقف لدرجة تثير الأعصاب.

قلت له: «إذا ضاعت حقيبتي فمعنى ذلك أنني انتهيت، وسوف أقتل نفسي».

- «لاداعي للقلق، وبما أن سليمان بك الذي أخذ حقيبتك يعمل في هذه الدائرة فلن تضيع الحقيبة أبداً، وسوف تجدها حتماً!.. قلت لي أنها تحتوي على وثائق الميراث! أليس كذلك؟..».

- «نعم يا سليمان بك.. الميراث».

- «وأي ميراث هذا؟».

- «جميع الموظفين العاملين في هذه الدائرة يعرفون موضوع ميراثي» «فقد شرحت هذا الموضوع إلى جميع الموظفين، ولم يبق سوى سليمان بك الذي أخذ حقيبتي، وحضرتكم، لاتعرفون قصة الميراث، وذلك لأنني أقابلكم لأول مرة!..»

- «ولأنني أيضاً موظف جديد في هذه الدائرة!»

- «هل تريد أن أشرح لك موضوع الميراث؟» فقال لي بعد أن تعبت أصابعه من ضربات الإيقاع وبعد أن ضرب أصابعه على كفه: «تفضل وسوف أكون بغاية السرور!..» كنت فرحاً جداً فهذه هي المرة الأولى

في حياتي التي أجد فيها شخصاً يرجوني لكي أحدثه عن موضوع الميراث.

بدأت بالحديث فقلت «في زمن السلطان...» فقاطعني وسألني «أي سلطان؟..»

- «السلطان الذي حارب إيران»

- «هه فهمت الآن تعني ذلك السلطان..»

- «نعم ذلك السلطان..» ولأن عيوني كانت معلقة على أصابعه التي لم تتوقف عن نقر زجاج الطاولة، لم أستطع أن أجمّع أفكاري بشكل من الأشكال.. فقال لي: «استمر في الحديث..»

- « عندما بدأ السلطان حربه على إيران.. كانوا يستخدمون في ذلك الوقت الحمام الزاجل لتأمين اتصالاتهم.. وكان جد، جد، جدي يهوي الحمام، ولديه أنواعاً عديدة منها في بيته وقد ربّى معظمها على يديه، فاستُدعيَ جدي من قبل السلطان وعهد إليه بشؤون الطعام والعناية بهذا الحمام. ومقابل هذه الوظيفة منحه السلطان ملكية مخلفات جميع الحمام الموجود في المدينة!.. مات جد. جد. جدي في الطريق أثناء عودة الجيش زمن الحرب.. وبقيت ثروته كإرث لأولاده من بعده، لكن هذه العملية، أقصد عملية تحصيل الإرث أخذت وقتاً طويلاً فلم يتمكن الأبناء من الحصول على هذا الإرث أثناء حياتهم. ولايخفى عليكم بأن (زرق) الحمام شيء ثمين ويصنع منه سماداً للزهور ويباع بأغلى الأثمان.. بعد ذلك صرخت بأعلى صوتي «أرجوك.. كفى»

- «ماذا بك؟..»

ـ «ماذا تريد أكثر من ذلك؟.. أنا لا أستطيع أن استمر في حديثي مادمتم لا تتوقفون عن النقر بأصابعكم على الزجاج وكأنكم تضربون على الرق.. لأن تفكيري سيكون عند أصابعكم، ولن أعرف ما سأقول»

ـ «هل يمكنك أنت القيام بضربات الإيقاع على زجاج الطاولة بأصابعك؟..»

ـ «وأي صعوبة في هذا؟..»

ـ «هيا جرّب لكي نرى..» بدأت بضرب الإيقاع بأصابعي على زجاج الطاولة، فقال لي بأنه يعرف بشكل أفضل مني. وقال لي: «انظر هكذا..». ثم وقفت أنا على رأس الطاولة ووقف هو على الرأس الآخر وبدأنا ننقر نحن الاثنين على زجاج الطاولة ونصدر أصوات الإيقاع، قرع الباب فجأة.. فاستمر سليمان بك بالنقر، ثم قال: «ادخل». فدخل رجل بين يديه بعض الأوراق وقال لسليمان بك: «لقد جئت بها من أجل التوقيع.. هل ستوقعونها؟..» عندها رفع سليمان بك أصابعه عن الطاولة وبدأ بتوقيع الأوراق التي وضعت أمامه، أما أنا فلم أتوقف عن النقر لكي أفسد الجو الرسمي لهذه الدائرة، ولكنني لم استمر بالنقر إلا بعد أن قال لي سليمان بك: «استمر من فضلك، لا تتوقف» وبعد أن وقع جميع الأوراق التي وضعت أمامه، التفت إلى الرجل البدين وقال له: «كن حكماً بيننا.. من يعزف أفضل؟..»، بدأنا نحن الاثنين بالنقر على الطاولة، كان الرجل البدين ينظر إلينا بمنتهى الدهشة، وبدون أن ينطق بأي شيء غادر الغرفة. فقلت لسليمان بك لكي أكسب وده ويساعدني في موضوع الميراث «إنك تعزف بشكل افضل!..».

- «طبعاً فأنا لم أتوقف عن التمرين طيلة اثنين وأربعين سنة»
- «لقد قلت انك حديث عهد في هذه الدائرة»
- «فعلاً لقد باشرت هذا اليوم» فسألته «ومن أين أتيتم؟..»
- «من البيت..» «أنت المدير أليس كذلك؟..» «كلا..»

ثم تابع النقر على زجاج الطاولة بأصابعه فسألته «هل أنت موظف؟..» فقال لي بأنه غير موظف وبأنه يشمئز من الوظيفة فسألته لماذا أنت هنا إذن!.. فقال لي أنه خرج صباحاً بعد أن أصابه الملل من الجلوس في البيت، وحينما رأى هذه الدائرة انتابه الفضول فدخل ليرى ماذا يفعلون داخل هذه الدائرة، وفيما كان يتجول داخل الدائرة مر من أمام هذه الغرفة، فانحنى الحاجب أمامه، وفتح له الغرفة وقال «تفضل» ثم قال لي «في هذه الحالة يعتبر عدم الدخول عمل غير لائق!..» كان لا يتوقف عن الضرب على الطاولة وهو يتكلم، وتابع قائلاً أما بالنسبة للشخص الذي جاء قبل قليل وطلب توقيع الأوراق فإنه لم يكن يود أن يوقع شيئاً، لكنه لم يكن يجد من المناسب أن يعيد الرجل الأوراق التي جلبها معه بدون توقيع!..» فقلت له «معنى ذلك أنني أضعت وقتي وأنا أحدثك عن الميراث..»

- «لم يذهب الوقت هباء فلقد أمضينا وقتاً ممتعاً».

انزعجت كثيراً وكاد الدم يصل إلى رأسي وخرجت من غرفته بدون أن أتكلم كلمة واحدة. ولما سألت الحاجب الواقف أمام الباب عن الشخص الذي في الداخل، فقال لي يمكن أن يكون المدير الجديد الذي عين بدلاً عن المدير القديم الذي تم نقله إلى دائرة أخرى.

إنه ليس المدير فلماذا جاء إلى هنا وجلس خلف الطاولة!.. حتى أنه قال عن نفسه أن اسمه سليمان بك.. لم أشأ أن أفتح فمي بكلمة واحدة فهذا الموضوع لا يخصني، وسيّان عندي فيما إذا كان هذا الشخص مديراً أم لا.. لقد تغيرت معاملة هؤلاء الحجاب معي كثيراً بعد اهتمام المدير سليمان بك. واستقباله لي. وفيما كنت أهبط الدرج بدأ الموظفون بالسخرية كعادتهم في كل مرة، كان من بين هؤلاء الموظفين سيدتان تلبسان صداري سوداء، كما كان معهم موظف صغير وكانوا يتحدثون ببعض الكلمات وهم يضحكون مثل «صاحب الحمام»، «زرق الحمام»، «مجنون». ولأنني كنت قد تعودت على سماع مثل هذا الكلام فلم أعرهم أي انتباه. يكفي أن لايقوم أحد من الخدم بطردي خارج الدائرة. ولم أكد أهبط الدرجة الثالثة أو الرابعة حتى انقطعت ضحكات السخرية. التفت ونظرت إلى الوراء فرأيتهم قد التفوا حول حاجب سليمان بك وهم يتهامسون ببعض الأشياء، وربما كان الحاجب يحدثهم عن مدى الاهتمام الذي لقيته من السيد سليمان بيك. لقد شعرت بأن نظرات الاستخفاف لم تعد موجودة..

هبطت الدرج ونزلت إلى الطابق الأول ثم حاولت متابعة النزول إلى طابق الأقبية الذي كنت فيه قبل قليل لأبحث عن سليمان بك الذي أخذ حقيبتي لكنني لم آخذ الدرج الذي ينزل إلى القبو، تجولت ضمن أرجاء هذا البهو الفسيح ذو الأرضية الرخامية أكثر من مرة ولكنني لم أعثر على الدرج الذي نزلت منه قبل قليل. حان وقت فرصة الغذاء، فذهب بعض الموظفين خارج الدائرة ليتناولوا طعام غذائهم، والبعض بدأ بتحضير طعامه داخل الدائرة، سألت أحد الذين

مروا من أمامي عن كيفية النزول إلى الأسفل، فقال لي الرجل: «لا يمكنك النزول إلى اسفل» ولما سألته فيما إذا كان النزول ممنوعاً قال لي: «لأنه لا يوجد طابق في الأسفل!..» ولما قلت له أنني نزلت قبل قليل، قال لي بأنه يعمل في هذه الدائرة منذ ثلاثة عشر عاماً ولايعلم إن كان في هذا البناء طابق قبو أم لا!.. ثم قال لي: «إنني أراك كل يوم هنا وأنا انتبه إليك جيداً فأنت اكثر انضباطاً من أي موظف آخر، فأنت تحضر إلى الدائرة قبل الموظفين ولا تغادر الدائرة إلا في الأخير.. في أي قسم تعمل؟..» كنت سأجيبه على سؤاله لولا ذلك الرجل ذو الشوارب والذي خرج من الغرفة التي أسفل الدرج وبدأ يصرخ في وجهي قائلاً «هيا اخرج من هنا بسرعة.. كأن لا عمل لدينا سوى التعامل مع المجانين !..».

بدأت أصرخ أنا في وجهه أيضاً وقلت له: « لن أغادر قبل أن أجد حقيبتي» تراكض الآخرون وحاولوا إخراجي بالقوة، وتجمع الناس حولنا عندما سمعوا هذه الضجة، وبعضهم قال أنني على حق.. وفيما كانوا يحاولون طردي من الدائرة تقدم من الجمع رجل ضخم وقال: «لايجوز أن تتصرفوا بهذه الطريقة مع المواطن !..» فتركوني وهجموا على الرجل، حاولت أن أفرقهم فمسكني الرجل الذي سألته قبل قليل عن الدرج وأدخلني إلى غرفة القلم. شكرته كثيراً وقلت له بأنني لن أنسى هذا الجميل وسأرده له عندما أقبض الميراث، فسألني عن موضوع الميراث. فقلت له «لدي فرمان سلطاني عليه خاتم السلطان، ولكن هذا الفرمان «ينص على أن ملكية السماد الخاص من (زرق) الحمام في جميع أنحاء المدينة تعود ملكيته لعائلتنا، وقد جاء في الفرمان أن ذلك يعتبر منحة من السلطان، وأنت تعلم أنه من الصعب جداً الخروج

بنتيجته من دوائر الدولة.. وأنت موظف وأرجو أن لا تغضب من هذا الكلام.. فأبي وجدي لم يتمكنوا من أخذ نصيبهم من الميراث، وقد مات هؤلاء المساكين وهم محرومون..

كان الرجل يتناول طعامه الذي وضعه على الطاولة، دعاني لمشاركته فكذبت عليه وقلت له: لقد ملأت معدتي قبل قليل، ثم قال لي: «إن هذا الإرث يعتبر ثروة طائلة»

- «صحيح ولكن باقي الموظفين لا يتصرفون بفهم مثلكم» كان قد سمع عن موضوع هذا الإرث من الآخرين ولأنه أبدى اهتماماً قلت له «لقد طرقت أبواب الدولة في سن مبكرة، تقدمت بمعروضي الأول قبل ثلاثة وأربعين عاماً» دهش من كلامي وسألني (كم عمرك؟..» قلت «أنا في الثلاثة والأربعون وليس هناك ما يدعو للدهشة، لأن والدتي أعطتني هذا المعروض قبل ثلاث وأربعين عاماً عندما كانت حاملة بي، وبما أنني كنت الوارث الوحيد وحتى لو كنت في بطن أمي، قامت بتسليم المعروض بيدها فاعتبر كأنني تسلمته بيدي. أليس كذلك؟»

- «هذا شيء طبيعي جداً»

- «أشكرك» «لو كان جميع الموظفين يتفهمون الأمور مثلك، كنت قد حصلت على الميراث منذ مدة طويلة.. كانت عائلتي كبيرة وعدد أفرادها كثيرون، ولم يبق منهم سواي لذلك أصبح الميراث من حقي وحدي»

-«سيظهر لك أقرباء كثيرون عندما تحصل على الميراث.»

- « أنت تعرف أكثر مني.. فبدون أن تدفع رشاوى في دوائرنا

الحكومية لايمكنك إنهاء أي موضوع لكن أرجوك فالكلام ليس موجهاً لكم..»

كانت أمي المسكينة لاتعرف سوى الهرولة وراء هذا الميراث، ولأنه لم يكن لديها المال اللازم لكي تدفع الرشاوى فقد كانت تعمل كخادمة، تكنس، وتمسح، وتغسل في بيوت الموظفين اللذين كانوا يعدونها بالمساعدة، ولكن ما قدمته أمي من خدمات لهؤلاء الناس انقلب ضدها. كانوا يتمسكون بها ولا يريدون التخلي عنها لأنها كانت نشيطة وست بيت من الطراز الأول، لذلك كانوا يحاولون عرقلة عملها كي تبقى مستمرة في خدمة هؤلاء الموظفين، حتى انهم نظموا برنامجاً فيما بينهم، يحددون بموجبه في أي يوم ستعمل والدتي عند الموظف الفلاني، فكانوا يحيلون لهذا الموظف أوراق الميراث، حتى الجيران أعلموني بان بعض الموظفين كان لا يحيل الأوراق إلى الموظف قبل ان يساومه ويأخذ منه نقوداً. وفي آخر الآمر فهمت أمي المسكينة كيف كان الموظفون يتقاذفونها فيما بينهم فشكت الأمر إلى رئيس الدائرة. فقال لها إنهم سفلة واحتكرها للعمل في بيته فقط. كان ذلك قبل موت والدي بفترة بسيطة، أصبحت أمي على وشك أن تقبض الميراث، ولكن بعد موت والدي وبقصد إجبارها على العمل في بيوت الموظفين قاموا بتخريب الوضع بشكل أصبح معد من الصعب جداً حول مشكلة الميراث.

في إحدى الدوائر جاءها المخاض، فولدتني وهي تغسل الثياب في بيت أحد الموظفين، كان أول شيء وعيته في طفولتي هو دوائر

الدولة، لان والدتي تأخذني معها يومياً لعدم وجود أقرباء لي تتركني عندهم، وبعد ذلك ماتت والدتي وأنا في الثالثة من عمري، فأخذت عمتي على عاتقها متابعة شؤون الميراث، وحسب ما روته لي عمتي فإنها كانت تلفني بـ «اللفة» رغم أنني كنت طفلاً كبيراً في الثالثة من عمري، وتأخذني معها إلى الدائرة لتستدر عطف الموظفين عندما يرون هذا اليتيم المحروم، فيقوموا بمساعدتنا ويحلوا مشاكلنا بسرعة، كانت تخرج بيدي من (اللفة) وتمسكني المعروض بيدي، وقد علمتني كيف أمد يدي إلى الموظف لتسليمه المعروض.

إنه شيء لا يصدق لقد أحالوا معاملة الميراث إلى رئاسة الأركان العامة، وأظن انهم فعلوا ذلك لكي يتخلصوا منا، اخترعوا حجة مناسبة وهي أن ميراثنا له علاقة بالحمام الزاجل الذي استخدم في الاتصالات أثناء حرب إيران وبما أن الموضوع يتعلق بحرب إيران فلا بد أن يكون له علاقة برئاسة الأركان، ذهبت عمتي وقابلت أحد الجنرالات. وعندما مددت يدي من اللفة وناولته المعروض تأثر الجنرال كثيراً وضمني إلى صدره، وأنا بدوري بدأت ألعب بالميداليات التي كانت على صدره، رغم أنني قد نُبهت كثيراً بأن لا أتكلم، لكنني نسيت ذلك التنبيه وأنا ألعب بالميداليات وتكلمت.. دهش الجنرال كثيراً عندما سمعني كيف يمكن لطفل أن يتكلم وهو في (اللفة).. كان جواب الأركان هو أن موضوع (زرق) الحمام من اختصاص وزارة الزراعة.. ماتت عمتي وبدأت أنا بمتابعة موضوع الميراث فوجئت بوجود المعاملة في رئاسة الشؤون الدينية وهذا شيء لا يصدق، ولكنها الحقيقة، لأن عمتي كانت تعمل أيضاً مثل والدتي في بيوت الموظفين

الذين لهم علاقة بحل قضية الإرث، لكي تضمن مساعدتهم. ورعاية أحفادها القاصرين أحالوا أوراقنا إلى أحد الموظفين العاملين في الشؤون الدينية.

انتهى الموظف من تناول طعامه. وكان يسمعني بمنتهى الدقة في بداية الحديث ولكن بعد أن ضغط عليه الطعام وغلبه النعاس وبدأت عيناه ترف، فكان يغفل قليلاً ثم يقول لي بعض الكلمات لكي يشعرني بأنه يتابع حديثي مثل «.. با..» «واه... واه»، «نعم». كما كان يردد هذه الكلمات أحياناً في غ أوقاتها المناسبة، توقفت عن سرد قصة الميراث وسألته «كيف سأجد حقيبتي؟..» فظن أني لا زلت أقص عليه قصة الميراث فقال: «يا... واه.. واه» ثم وضع يديه على رأسه وأسند رأسه على الطاولة وبدأ بالشخير، وبعد ذلك توقف عن الشخير وسألني «وماذا حدث بعد؟..»

ـ « أنا لا أجد الدرج الذي ينزل إلى الطابق السفلي»

ـ «أنا في هذه الدائرة منذ ثلاثة عشر عاماً ولا أعرف شيئاً عن هذا الدرج، ولكن لا تيأس. استمر في البحث فقد تجده».

شكرته وخرجت من عنده ولم أكد اخرج من باب غرفتي حتى صادفت سليمان بك الذي أخذ حقيبتي فقال لي: «أين أنت يا عزيزي؟.. كل شخص يترك عندي حقيبة ويمضي، تعال خذ حقيبتك..». سار أمامي فتبعته، كان الدرج الذي تعبت وأنا ابحث عنه أمامي.. لم افهم لماذا لم أر هذا الدرج؟.. نزلنا الدرج وعبرنا الممرات، الممر الطويل، ومشينا في ممرات أخرى نحو اليمين ونحو الشمال، كان سليمان بك لا يتكلم فحافظت على صمتي كي لا

KMH

أفسد الجو، بعد ذلك ودخلنا إلى غرفة كبيرة، كانت الغرفة مملوءة بالحقائب فقال لي: «هيا خذ حقيبتك!..». بدأت بالبحث عن حقيبتي ضمن هذه الكومة من الحقائب.. تعبت من البحث فجلست فوق الحقائب.. دخل رجل في الخمسين من عمره، حواجبه كثيفة، ونظراته قاسية فقال لسليمان بك: «هل لديك الزائدة؟..» فقال له سليمان بك: «نعم لدي، ولكنني بحاجة إليها ولا أستطيع الاستغناء عنها.

ـ «أنا لم أطلبها منك ولكنني سألتك فقط إذا كانت لديك !..» ثم نظر إلى كومة الحقائب فرآني فقال: «هل ينام؟..» فقال له سليمان بك: «لعله تعب كثيراً فنام!..» ولأنهم ظنوا أني نمت ولكي لا أكذبهم تصنعت النوم، فقال الرجل: «معنى ذلك أنه قد تعود على هذه الدائرة» فسأله سليمان بك «وهل تعرفه أنت». «طبعاً» فهو في هذه الدائرة منذ سنوات وقد اعتاد عليه الجميع، سبق وأن كلفناه بشؤون أحذيتنا حتى أننا استخدمناه في قلم الدائرة لمدة سنة، كان يخدمنا في جميع أمورنا. فسأله سليمان بك «ولماذا طردتموه بعد ذلك» «نحن لم نطرده هو قدم استقالته وتركنا» «هل كان وقع العمل عليه ثقيلاً» «كان كل من صادف هذا المسكين ينهال عليه بالضرب وخاصة رئيسه عندما يتشاجر مع زوجته قبل خروجه من البيت. فيضربه ليأخذ بثأره منه، ويتوقف عن ضربه عندما لا يتشاجر مع زوجته..».

«على كل أنا ذاهب هل لديك الزائدة» فقال سليمان بك: «نعم لدي، لماذا تسأل؟..» فقال الرجل ذو الحواجب الكثيفة: «الوزارة

تسأل». من الآن وصاعداً سوف ننظم جدولاً ونرسله إلى الوزارة!.. جدول الزائدة الدودية». «سنقوم بعمل إحصائية لكي نرى نسبة الذين لديهم زائدة» فقال سليمان بك: «كل إنسان لديه الزائدة» فرد عليه الرجل ذو الحاجب الكثيف «صحيح أن كل إنسان لديه زائدة ولكن يمكن أن يكون البعض قد أجرى عملية استئصال لها» فسأله سليمان بك «ولماذا تسأل الوزارة.. هل لدى الوزير قلق على زائدتهم» فقال له: «لا أظن» لقد ادعى الموظفون ذلك ولكي يكذب الوزير ادعاءهم حاول إشغالهم بهذا العمل الجديد». وبعد أن خرج الرجل ذو الحواجب الكثيفة، مسك سليمان بك ورقة كانت على الطاولة وطواها عدة طيات ثم بدأ بتنظيف أسنانه بالقسم المدبب منها، تصنعت كأنني قد استيقظت ثم بدأت أبحث عن حقيبتي من جديد، فسألني سليمان بك «من أين جاءت الأوراق إلى دائرتنا؟..» فقلت له «من وزارة الخارجية» فقال لي: «وماعلاقة وزارة الخارجية بـ (زرق) الحمام» ثم أضاف «هل لأن الحمام له فتحة خروج فاعتبروا أن ذلك له علاقة بالخارجية؟..» «كلا.. من أجل حرب إيران..». وأشد ما أدهشني هو كيف عرف سليمان بك بأن ميراثي يتعلق بسماد الطيور فسألته «من أين عرفتم؟..»

ـ إن الشخص الذي جاء ليس المدير. ولكن الجميع يحسبونه مديراً. إنه إنسان أصابه الضجر ومل من التجول في الشوارع فدخل إلى هذه الدائرة وجلس في غرفة المدير. لم يندهش لما قلته وقال لي بما أنه جلس في غرفة المدير فسوف نعتبره مديراً. ثم قال لي: «الفرق بين المدير، وغير المدير هو دخول بعض الأشخاص بين المدير والمواطن: كالحاجب مثلاً ... أما إذا كان المدير مديراً عاماً، فسيكون عدد الأشخاص أكثر.

أما إذا أصبح الإنسان وزيراً، فيجب أن لا يتكلم فخامته مع المواطنين مباشرة، وعندها لابد من وجود الوسطاء..» فسألته «ولماذا يجب أن يتدخل بعض الأشخاص، مثل الحاجب والبواب، والموظف، ورئيس القلم؟...» فأجابني: «إذا لم يتدخل هؤلاء الأشخاص فإن المواطن لن يحترم المدراء. وهؤلاء يحتشدون في هذه الدائرة ليس من أجل قضايا المواطنين، بل لتأمين احتياج أولئك المدراء من الاحترام.. والمواطن هو الذي يدفع الثمن. فقلت له «يسلم رأسك»!.. ها قد جاءتني تلك العادة الذميمة وهي الكلام الذي ليس له معنى وليس مناسباً. لم يأمن سليمان لما قلته. قرع الباب فقال سليمان بك: «ادخل» فدخلت سيدة، وكانت هي نفس السيدة التي رأيتها في الممر وسألتها عن سليمان بك، فقالت: «لقد دعانا السيد المدير العام.. لذا يجب علينا أن نجهز أنفسنا، ثم ذهبت إلى كومة الحقائب وفتحت إحدى الحقائب وأخرجت منها ثديين مستعارين من القماش، ومرآة، ومشط، وقلم حمرة وعدة الزينة، ثم بدأت بالبحث عن مكان لتسند عليه المرآة ولما لم تجد قالت لي: «هل تمسك لي هذه؟..». مسكت المرآة، خلعت المرأة الصدرية ثم وضعت الثديين المستعارين على صدرها بشكل جيد، ونظرت إلى المرآة، ثم سألت سليمان بك «ما رأيك؟..» فقال لها سليمان بك «جميل جداً» ولكن لماذا لا تضعينهم بشكل دائم؟..» فقالت: «لأن المدير يغار إذا وضعتهم بشكل دائم، وهو يريد أن أضعهم من أجله فقط!..»

ثم بدأت تتزين وهي تنظر إلى المرآة التي كنت أمسكها بيدي، فسألها سليمان بك «هل المدير جديد» فقالت له: «إن كل المدراء يشبهون بعضهم البعض!..»

خرجت السيدة فقال سليمان بك: «هذه السيدة هي سكرتيرة السيد المدير. إنسانة شريفة جداً وصادقة، فهي لا تضع ثدييها المستعارين إلا عند الدخول إلى غرفة المدير» فقلت له بان المدير الجديد اسمه سليمان بك أيضاً. فقال لي: «ألم تقل السكرتيرة أن جميع المدراء متشابهون.. المدير القادم كان اسمه سليمان أبضاً!...» فقلت له «وأنت سليمان ولكنك لست مديراً!..» أجاب «جميع المدراء هم سليمان، ولكن ليس كل من كان اسمه سليمان مديراً!..»، بعد ذلك سرح طويلاً في التفكير ثم أضاف «إن بيني وبين هؤلاء المواطنين في هذه الدائرة، عدة أبواب بالإضافة إلى هذا الممر الطويل... أنظر إن السيدة التي جاءت قبل قليل، نقرت الباب واستأذنت بالدخول، ولكن هذا لا يكفي لكي تكون مديراً، يجب دخول بعض الحجاب أو السكرتيرات في الوسط، لكي يشعر المواطن بأننا محترمون..»

عادت السيدة والسكرتيرة ودخلت بدون أن تنقر على الباب وقالت: «إن المدير الجديد شيطان، وذكي جداً فلقد وجد طريقة للتخلص من هذا المجنون الذي تسلّط على هذه الدائرة...». رأيت سليمان بك يشير بعينه وحاجبيه للسيدة السكرتيرة لكي تسكت.. لكن السيدة تابعت حديثها «من يكون ذلك المجنون». «أين هو الآن يا ترى؟...» إن لديه قضية ميراث.. السيد المدير يطلبه!..» اختبأت خلف كومة الحقائب فجاء سليمان بك ووضع يده على كتفي وهمس في أذني قائلاً «لا تزعل أبداً لن يستطيعوا إزعاجك، وسأرافقك أنا لكي أمنعهم إذا حاولوا ضربك أو طردك» فقلت له «أشكرك شكراً جزيلاً وأنا لن أنسى فضلك أبداً عندما اقبض

الميراث..» ثم قال سليمان بك للسيدة: «هذا هو...». فخرجنا نحن الثلاثة من الغرفة وصعدنا إلى الطابق الأول، وركبنا المصعد. ضغطت السيدة على زر الطابق السادس فقلت لها «لكن غرفة المدير هي في الطابق الثالث» فقال سليمان بك: «لا يهم سوف نصعد أولاً للطابق السادس، ثم ننزل إلى الطابق الثالث» فسألته «ولكن لماذا؟..» فقال لي: «ألم أشرح لك الموضوع؟.. فالاحترام يزداد كلما ازدادت المعاناة..» غضبت السيدة السكرتيرة وسمعتها وهي تهمس في أذن سليمان بك قائلة: «لماذا تبوح أمام الغرباء بأسرار الدولة؟..» فقال لها سليمان بك بعد أن همس في أذنها: «إنه ليس غريباً، إنه يعتبر واحداً منا، انظري إليه إنه مجنون أيضاً» صعدنا الطابق السادس ثم نزلنا إلى الطابق الثالث، ودخلنا غرفة المدير، ولكن لم يكن المدير هو الرجل الذي قابلته صباح هذا اليوم، عرف المدير بنفسه قائلاً «أنا سليمان» ثم صافحني فقلت له لقد كان هناك مديراً آخر هذا الصباح، فقال لي المدير لقد نقل المدير وجئت مكانه، ثم أشار علي بالجلوس وأضاف: « جئت إلى هذه الدائرة لأقوم ببعض الإصلاحات!..» فسألته: «من أين جئتم؟..» أجاب: «جئت من الفندق»، قلت: «إن المدير الذي كان قبلكم جاء من البيت..» ثم قال بأنه سيبقى في الفندق ريثما يجد بيتاً للإيجار، فسألته وما هي الإصلاحات التي تنوون القيام بها؟..» أجاب: «سأعطي أهمية كبرى للإحصاء، فبدون إحصاء لايمكن معرفة وضع البلد بشكل جيد!.. لذلك فنحن نقوم الآن وقبل كل شيء بإحصاء الموظفين الذين لديهم الزائدة، والذين ليس لديهم، وقد خرجنا بنتائج مذهلة من جراء هذا الإحصاء، حيث تبين لنا أن هناك موظفاً واحداً من

كل ثلاثمائة موظف قد أجرى عملية استئصال الزائدة، لكن الأهم من ذلك أننا عثرنا على أحد المواطنين لديه زائدتان» فسألته «وماذا فعلتم بهذا الرجل!..» ستعطيه مكافأة، ثم بدأ ينقر بأصابعه على زجاج الطاولة نقرات إيقاعية وبدون توقف، وعندما تعبت أصابعه بدأ يضرب بها على راحة كفه ثم قال إن المدير السابق كان ينقر على زجاج الطاولة نقرات إيقاعية وهو لا يريد أن يغير من مبادئ هذه الدائرة بل يريد استمرار هذه المبادئ. «نعم سأقوم ببعض الإصلاحات بدون أن أبدِّل أي شيء من المبادئ... مثلاً يجب أن تستمر السكرتيرة بلباس الثديين المستعارين عندما تأتي إلي لكي لا تتغير المبادئ!..».

بدأ يسرع في الضرب على الطاولة ثم قال: «أهم الإصلاحات التي أنوي القيام بها هي التسريع في إنجاز المعاملات القديمة، لهذا أرسلت في طلبك لنتحدث عن موضوع ميراثك. لدينا بشرى سارة لك. استلمنا الجواب على معروضك، بالموافقة على حقكم في الميراث.. واصبح (زرق) الحمام منذ أربعة جدود وحتى الآن هو ملك لعائلتكم. وقد تم حساب هذا الإرث من قبل خبراء وزراء الزراعة ووفقاً لهذا الحساب فإن وزن (خروج) الحمامة الواحدة في اليوم هو ثمانية وأربعون غراماً، وبما أن عدد الحمام الحر الموجود في مدينتنا يقدر عدده بعشرين ألفاً. وحيث أنهم اعتبروا أن مدة كل جد هي ثلاثة وثلاثون عاماً فتكون المدة الإجمالية لأربعة جدود هي مائة واثنان وثلاثون عاماً. وبذلك يكون مجموع وزن (زرق) الحمام ستة وثلاثون ألف طن، يعني أن ميراثكم هو ستة وثلاثون طناً من (زرق) الحمام هذه الكمية تم تثبيتها، ووفقاً للأسعار الرائجة

في هذه الأيام فإن سعر الكيلو غرام الواحد هو عشر ليرات، معنى ذلك أن قيمة ميراثكم هي ثلاثة ملايين ونصف ليرة وقد اعتبرت وزارة المالية أن ثمانية عشر في المائة من هذه القيمة هي ضريبة تركات ويجب عليكم أن تدفعوا هذه الضريبة قبل أن تستلموا ميراثكم!..

فقلت له «ألا تستطيع المالية أن تأخذ مني (زرق) الحمام كضريبة وتعيد إلي نقداً باقي استحقاقاتي!..» قال: « يجب أن تكون الضريبة مبالغ نقدية وليست أشياء عينية.. فيجب أن تدفعوا الضريبة نقداً». «إذا كان الأمر كذلك فأنا تنازلت عن حقي في الميراث». فقال: «هذا لايجوز لأن الميراث قد تحقق بناء على طلب منكم ولذلك لا يمكنكم التخلي عنه،،انتم مدينون الآن للدولة بمقدار الضريبة ويجب أن تقوموا بتسديدها!..»

شكرته ونهضت وقبل أن أخرج من الغرفة التفت وقلت له وكان لا يزال ينقر على زجاج الطاولة «وأنا أيضاً أستطيع أن أنقر على زجاج الطاولة وأعمل إيقاعات مثلك. حتى لقد تباريت مع المدير السابق». غضب المدير من كلامي هذا واعتبره إهانة لمقام الإدارة. وأراد أن ينظم ضبطاً بالموضوع، فتصدى له سليمان بك الآخر وأراد حمايتي فقال له: «أرجو أن تعذروه فهو زعلان ولا يدري مايقول!..» وأخرجني من الغرفة.

حسناً.. ماذا عن حقيبتي؟.. فيها كل أوراق الميراث التي دأبت على جمعها منذ عدة سنوات.. لقد جمعت هذه الوثائق من الصحف التي كانت تصل إلى يدي ومن كتب التاريخ فكنت أقص

هذه الوثائق وألصقها على ورق وأمضيت عدة سنوات.. والآن أصبحت كهلاً لا أستطيع أن أبدأ من جديد.. سمعتهم يقولون بعد خروجي «إن المسكين يبكي..» نزلت الدرج.. جميع موظفي وخدم الدائرة والحجاب تجمعوا في الطابق السفلي ينظرون إلى نظرات حزينة بدون أن يتكلموا ولا كلمة وكأنهم غير الأشخاص الذين كانوا يسخرون مني طيلة هذه السنين. قطع طريقي الموظف الذي دعاني إلى غرفته وكان يسمع حديثي وهو نائم وقال لي بصوت مختنق وقد طفت الدموع من عينيه: «لقد وعدتني بحصة عندما تأخذ ميراثك!.. أشكرك لقد أخذت نصيبي..) ولم يستطع أن يكمل كلامه لأنه أجهش في البكاء.. عجيب أمر هؤلاء الخدم الذين لاتعرف أصلاً أو فصلاً لهم، فكم من مرة تأبطوا ذراعي وألقوا بي على الدرج!.. إنهم يقفون الآن أمام المدخل الكبير، ينظرون إلي بصمت وعيونهم ملآى بالدموع.. وكأنني تلقيت لطمة على وجهي، أطرقت رأسي خجلاً ومشيت.. كنت أشعر في السابق بأمل في قبض الميراث، وسأحضر صباح كل يوم وقبل الموظفين إلى هذه الدائرة.. أما الآن فقد ضاع ميراثي، وفقدت أملي.. كل شيء ضاع، ولم أعد أستطيع البدء من جديد.. جميع الوثائق ضاعت من يدي.

ذهبت باتجاه البحر.. كان الجو بارداً والمطر يتساقط بغزارة، دخلت وسط الزحام ولم يعرف واحد من هؤلاء الناس أنني ضحيت بكل آمالي في سبيل أن أكون غنياً. سأنزل على البحر... كلا.. الطقس بارد جداً.. الأفضل أن أبقى ضمن هذا الزحام لكي اختنق في وسطه.. وهذا ما سأفعله.. هذا المدير الجديد. الذي سيقوم بعمل

إصلاحات.. أنقذ الدوائر الرسمية مني.. تغلغلت أكثر وسط الزحام لكي أختنق.. وقف أمامي شخص حياني، لم أتعرف عليه بادئ الأمر، وقد فهمت أنه أحد موظفي الدولة بعد أن تكلم معي بسخرية واستهزاء. جميع الموظفين إما أن يصدُّوني ويطردوني، وإما أن يتكلموا معي بسخرية واستهزاء، ولكن الأمر كان يختلف في بداية الشهر عندما تكون جيوبهم عامرة. قال لي:

«لم تعد تمر على الدارة منذ مدة طويلة» فسألته:

ـ أي دائرة؟

أبدى انزعاجه لأنني لم أتذكر اسم دائرته فقال لي:

ـ من أجل ميراثكم من (زرق) الحمام.. لقد جاءتنا حاشية الوزارة. وهم يطلبون إبراز ثبوتياتكم لذلك فنحن نبحث عنك..

مغفل !. إنه يريد أن يسخر مني.. سوف ترى عندما أحصل على ميراثي..

يجب أن أذهب الآن لكي ابدأ بتجميع الوثائق من جديد، ولا أدري كم سنة يجب علي أن أعمل لأتمكن من جمع هذه الوثائق؟.. سأذهب إلى بائعي الصحف القديمة الذين يبيعون الصحف بالكيلو.. أكثر ما ينقصني من الوثائق هو ما يطبع في الجرائد القديمة في صفحة المتفرقات، تلك الجرائد التي كانت تصدر بالتاريخ الروماني.

الدنيا جميلة.. مهما جرى، دعني أبدأ الآن بجمع الوثائق من جديد.. مادام الجواب جاء من الوزارة.

هذه القصة نشرت في مجلة «ماركو باشا» في عام ١٩٤٦. ثم

نشرت بعد ذلك في كتابي ياباتاش وحمدي الفيل تحت عنوان (زرق) الحمام. أعدت النظر فيها وكتبتها من جديد.

ع. ن

○ ○ ○

KMH

الفهرس

١ ـ كيف تم القبض على جمدي الفيل ٥
٢ ـ الشركة التركية المساهمة لقطع الغيار ١٣
٣ ـ مصنع الطناجر ذات الصافرة ٢١
٤ ـ المرايا المعجزة ٢٧
٥ ـ العصابة ٣٥
٦ ـ غريق في الشاطئ ٤٣
٧ ـ مواصفات رئيس البلدية ٤٩
٨ ـ للمستأجرة ما شاء الله ٥٧
٩ ـ منزل فوق الحدود ٨٩
١٠ ـ صبري أفندي (السترتبيز) ١٠١
١١ ـ لبعضهم حسن الطالع، ولبعضهم العمى صالح ١١١
١٢ ـ شرطي لديه روح الهواية ١١٧
١٣ ـ الغنيمة ١٢٧
١٤ ـ مساومة ١٣٩
١٥ ـ التملق ١٤٥

١٦ ـ أنا مدين لك بسعادتي ١٥٧
١٧ ـ المفتاح ١٦٣
١٨ ـ فتاة تهرب في يوم زفافها ١٧١
١٩ ـ لا أثر للسفينة «نصر» ١٧٩
٢٠ ـ اشحذوا ذكاءكم ١٨٩
٢١ ـ طبيب الأعصاب ١٩٥
٢٢ ـ وحش الباب العالي ٢٠١
٢٣ ـ التسلط ٢٠٧

حمــدي الفيــل

« قصص »

ـ حمدي الفيل مجرم خطير هارب من وجه العدالة، عممت مديرية الأمن على مخافرها أوصافه التالية للقبض عليه: عمره أربعون عاماً، طويل القامة، وزنه مائتي كيلو غرام، لونه حنطي، أفجق، أضراسه مطعمة بالذهب، شعره خفيف، ينتعل حذاء أسود، لأخذ الحيطة والحذر عند القبض عليه.

ـ استغل أحد أصحاب محلات بيع المرايا إعلاناً تلفزيونياً عن اختراع أشعة خاصة تؤثر على المرايا القديمة في العالم كله، فتظهر على سطوحها جميع الصور التي مرت أمامها منذ صناعتها. وبما أن أموراً كثيرة حصلت أمام تلك المرايا فقد أقدم أصحابها على تحطيمها في منازلهم خوفاً من الفضيحة، وشراء مرايا جديدة.

ـ أخيراً استغل أصحاب مكاتب العقارات أزمة السكن فصاروا يبيعون المواطن مسكنه على المخطط، ولن يزور المشتري موقع مسكنه إلا بعد دفع نصف قيمته، وعندما يُسأل صاحب المكتب عن موعد المباشرة بالعمل يجيب: قريباً جداً إن شاء الله. وتطول لعدة سنوات.

وقصص أخرى ممتعة تجدونها في هذا الكتاب.

الناشر

الوطنية الجديدة

السعر 200 ل.س